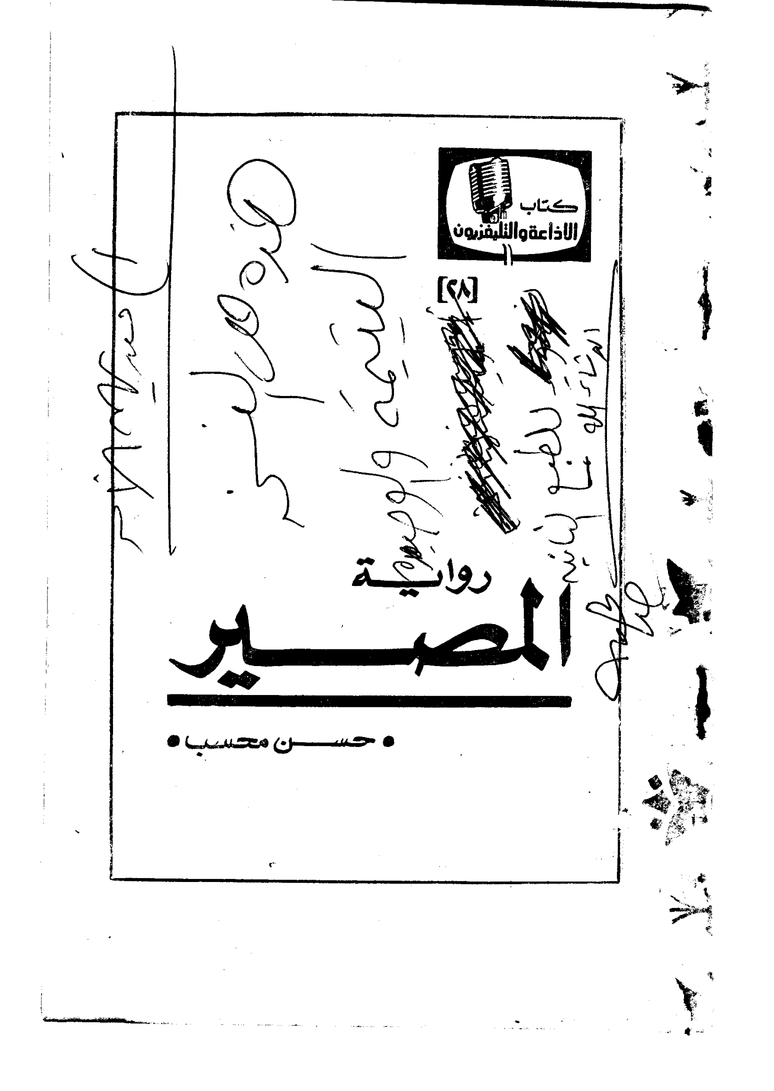


كتاب
الاذاعة والتليفزيون
[٢٨]
رواية
المصير
• حسن محسب •

الإهـــداء

« إلى الذين حملوا مصير الوطن في
قلوبهم وعقولهم ، في سنوات المحنة
والخطر ، دون أن ينكسروا .. وأضاءوا
الماضي والحاضر والمستقبل بالنار والدم
.. في نهار ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .. »

حسن محسب

كلمة يجب أن تقال

كان العبور قد تم فعلا .. وكان الانتصار يتحقق أيضا .. لكن أحداثا خطيرة كانت تتوالى .. وكانت الأعصاب مشدودة فى ذلك اليوم ! .

كان الطريق الى السويس مغلقا .. كان الطريق الى الاسماعيلية مغلقا .. كان اللهب والدخان وفرقعة الدانات تعلن عن الجحيم الذى يشعله رجالنا فى ((الدفرسوار)) ! ..

كان ذلك فى صباح يوم ٢٤ أكتوبر ـ بعد أن حصلت على تصريح بالذهاب الى الجبهة .. بالتحديد الى ((رأس العش)) .. و ((القنطرة شرق)) .. وكنت مضطربا ! ..

كانت رؤية المشهد الدامى ممكنة ونحن فى الطريق من دمياط الى بورسعيد .. عبر الملاحات والهيش والبوص وفوهات المدافع وعيون الرجال المتحفزين .

واصبحت رؤية اللهب واضحة الآن ، واخذت الانفجارات تصم آذاننا وتشحننا بالقلق ونحن نتجه من بور سعيد الى القنطرة غرب .. كان الخطر ماثلا فى كل خطوة .. وكنت خائفا ، رغم اننى جندى مشاه قديم .. لكننى كنت ـ الآن ـ قادما من

صحفيا وأديبا .

العاصمة التى لم تحارب .. أو تتهدم أبدا منذ صارت مـكانا للذين تركوا مدن القناة وقرى مصر تحارب بناسها البسطاء نيابة عنهم ! ..

وكان العدو يواصل تسلله . محاولا الحصول على أى شيء يقلل من حجم الزلزال الذى حل به على أيدى قواتنا .. التى كانت تواصل ـ فى ذلك اليوم ـ تلقينه الدرس القاسى !..

وفى مكان ما بين الـكيلو «١٠» ـ والكيلو «١٩» .. لمست قدماى .. أول بداية أرضية الكوبرى ـ « المعبر » .. المصنوع من الصلب والدم .. اجتاحتنى آلاف الذكريات .. ففى أثناء حرب الاستنزاف كنت فى السويس .. كنت فى الاسـماعيلية .. كنت أيضا فيما بينهما من قرى وجناين وحقول و .. عرفت الخـوف .. والشجاعة و .. صافحت أحلام العبور فى عيون الأهالى .. والجنود .. وفى تلك الأيام كنت أتطلع الى « خط بارليف » العالى .. الرهيب و .. احـاول أن أتخيل كمية الدم التى سيبذلها الرجال لسحقه سحقا .. اذا أردنا الخلاص ..

و .. على أبواب القنطرة شرق .. كانت آثار المعركة الدامية فى كل شـبر : حطام مدرعات العدو .. خوذات جنـوده الذين هربوا .. أو قتلوا .. أو أسروا ..

فوق أحد حصون العدو ، التى سحقها الرجال بالفعل .. وقفت شامخا فى ظل علم الوطن .. وعانقت عيناى ويداى وجه الضابط البطل الذى يقف بجوارى عملاقا ساحرا .. وأخذت أملأ صدرى وعينى بهواء ورمال وجبال سيناء الغالية .. كنت فى أيام حرب الاستنزاف لا أراها .. كانت حصون العدو تخفيها عنى .. وتجعلها بعيدة .. بعيدة ..!

كنت أتساءل : هل حقا سنعبر وندمر هذا الحاجز المسلح

بالموت ؟! .. وكنت برغم الدمار فى السويس وما حولها .. أصدق كلمات الرجال فى خنادق الشط الغربى للقناة . كانوا واثقين .. وكانوا يعرفون الثمن الفادح الذى يطلبه الوطن منهم : أرواحهم !

و .. استدرت الى الضابط ـ الذى يصغرنى بعشر سنوات ـ وأطلت النظر الى عينيه ، الى وجهه المعفر بتراب ودخان المعارك و .. تعلمت درسا جديدا هو : قراءة تفاصيل المعارك الضارية فى نظرات الرجال وفى نبرات كلماتهم الواثقة .. و .. لاحظت أن العلم المرفوع فوق الحصن المسحوق ينقص من أحد أطرافه مقدار « قبضة يد » .. فسألته :

ـ بقع الدم الطاهر على العلم مفهومة .. لكن هذا الجزء الناقص ...

وقبل ان اتم سؤالى ، قال ومسحة من الألم تظلل عينيه :

ـ « كان أبسط واجب ، أن يرحل زميلنا حامل العلم و .. فى قبضة يده تذكار مقدس لبطولته ! .. »

و .. فهمت ! .. وتعلمت : انه الفداء .. والوفاء ..

لم تكن المعركة هينة .. أو «لعبة» .. كما يتصور أو يتمنى خيـال عشاق الوهم .. المرضى بالأحقـاد .. كان العـدو يدافع عن حصونه بعنف .. بشراسة .. بجنون .. كان يدافع عن حقه فى العدوان ، كان يهرب من الزلزال القادم اليه عبر القناة بمزيد من النيران والقتال ولكن .. كان الرجـال من أولاد كنانة الله يعبرون اليـه موجـات وراء موجـات ويلتحمـون بصـدورهم وقذائفهم مع مدرعاته ويحرقونها و .. يطاردونها . ولقد صرخ قائد هـذا الموقع .. الذى اقف فوقه الآن .. صرخ مستغيثا : « المصريون فوقنا الآن .. رصاصهم يشعل اللهب فى الدشـم .. انقذونا ! . » ـ كما قالوا فى كتابهم « التقصير » ! ..

.. سألت الضابط المنتصر :

ـ « كيف حدث ما حدث .. ليتك تحكى لى تفاصيل التفاصيل ! .. »

فقال ببساطة :

ـ « قام كل رجل هنا بواجبه .. وتمكنا من احتلال هذا الموقع الذى ظل يعتدى بمدافعه وصواريخه ودباباته على رأس العش وبور سعيد والقنطرة غرب ومشارف الاسماعيلية طوال سبع سنوات ! ..

ثم قال : « هذا الموقع كان يضم ١٧ ملجأ مدفعية ثقيلة و ٦ مواقع مدفع هاون ، و ٢٦ مم ، و ٩ مواقع مدفع جوى ، و ٢٠ دشمة رشاش ، و ٣ نقط ملاحظة ، و ٩ ملاجىء دبابات و ٨ مرابط دبابات احتياطى ، و ٣ مخازن ذخيرة و ٣ مخازن مواد كيماوية وموقع صواريخ أرض ـ أرض » .

ثم .. صمت .. طال صمته .. فنظرت الى اشلاء مدرعات العدو .. وحطام حصونه من حولنا .. وقلت :

ـ « كانت فرصة العمر لى عندما دعيت الى هنا ، ضمن وفد المدنيين .. وقد جئت لأرى .. لأسمع لأستكمل المعايشة والتجربة.. ولأكتب .. واعترف لك بان خيالى مهما كانت مقدرته لن يسعفنى فى تصور كل ما سترويه .. فأرجوك .. أعطنى كل ما يسمح به وقتك .. وحدثنى عن كل شىء .. كل شىء .. ان ما حدث كان رائعا ومروعا ايضا .. وسيظل مادة خصبة للأدباء والشعراء .. جيلا بعد جيل .. و .. وبالنسبة لى فقد تجرعت ـ مثل غيرى ـ مرارة الهزيمة والاستنزاف هنا وفى القاهرة و ..

ببساطة أشد .. قال البطل : « يا صديقى .. اننا لم نات من فراغ .. » ثم اضاف :

ــ « دعنا نلقى نظرة على البر الغربى .. انظر .. منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧ ونحن هناك .. كنا نعد لهم ما استطعنا من قوة البطش .. كنا أيضا نتجرع الانتظار ومرارته .. ونريد الخلاص من عار الهزيمة و .. كان لابد ان ندبر للعدو معركة طاحنة ساحقة و .. » .

طال الحديث .. وصحبنى الى داخل ما تبقى من حصون العدو .. وشرح لى بعض الغاز الأسلحة والأجهزة التى كانت معدة لتدمير كل من « يجرؤ » من المصريين على عبور القناة اليهم و .. وصلنا الى شوارع القنطرة شرق و .. روى لى تفاصيل الساعات الرهيبة هنا .. وهناك و ..

.. عندما آن لى ان اعود .. عبرت فى صحبته فوق « الكوبرى » فلفت نظرى الى أجزاء من الصلب ظلت معلقة .. متماسكة بصورة تثير الدهشة .. وقال : « لم يكفوا عن محاولاتهم المجنونة لتدمير المعبر .. »

ملأنى الاحساس بأن « المعبر » لم يسقط احتراما لشجاعة العابرين الذين لبوا نداء الوطن وخرجوا به من قلب المحنة والخطر .. وتحملوا مسئولية انقاذ أمة بكاملها من مخالب الضياع والتمزق .. ووثبوا بنا وثبة العمر نحو النجاة ..

.. وأخذنى الضابط الى ما وراء السواتر التى من خلفها عبر الرجال .. فوجدت نفسى بين عشرات من الأهالى الذين عانقوه وبللوا وجهه بدموعهم .. كانت البهجة تلمع فى عيونهم.. كانوا شامخين .. كانوا يطاولون السماء ..

أثناء جولتى معه فى ربوع البلدة الصغيرة ، القريبة من القنطرة غرب ، قص على حكايات « على الطواب وابنته وداد » و « الحاج نور الدين وابنته ليلى » و « عطية الصعيدى وابنه طاهر » وصديقته عزيزة مختار و .. « مرسى المنفلوطى والبنت

سميرة والولد حسنى » و .. غيرهم من الذين تشبثوا بالأرض وفضلوا مواجهة العدو .. واقتحام الخطر مع عشرات المئات من جنودم المقاتلين ..

و .. سألته عن اسم البلدة .. فقال اسمها « اولاد كنانة » ولم لا .. اليست صورة مصغرة لمصرنا الغالية ؟! .. »

.. عندما ودعنى ـ اخيرا ـ قال بثقة كبيرة : « هنا كانت البداية » .. ثم أضاف :

ـ « الم أقل لك .. ان ما حدث فى أكتوبر .. قد حدث بهذه الصورة العظيمة لأننا لم نات من فراغ .. لقد كنا دائما هنا .. وكانت الرحلة قاسية ودامية .. »

.. وبعد :

فيا صديقى البطل « مراد .. » ، ساظل الى آخر لحظات العمر ، مدينا لك بهذه الثقة الغالية .. ثقتك فى قلمى .. وثقتى بنفسى التى تجددت ـ بكل الكبرياء ـ بعد أن عبرتم بنا حواجز الخوف والهزيمة .. فشكرا لك يا واحدا من آلاف الأبطال الذين أجلوا احلامهم ومشاكلهم الشخصية من اجل معركة « المصير » .. فلقد تعلمنا منكم أيضا قيمة الفداء .. ومعنى الوفاء .. وأن كل ماهو نبيل وعظيم صار فى متناول أيدينا !..

والله ولى التوفيق ،

« حسن محسب »

القاهرة فى نوفمبر ١٩٧٣

الفصل الأول

الغارة

انشرخت الأرض فى هزة عاتية ، وزلزل عواء الطائرات أركان القرية ، وتهدمت بيوت وتلاشت حقول وتساقطت أشجار ، وتناثرت أجساد رجال ونساء وأطفال وطيور وماشية ، واختفى المكان والزمان فى سحابات كثيفة من النار والدخان .. أذاعت النبأ فى كل مكان ، وعرف الجيران أن بلدة « أولاد كنانة » تعرضت لغارة همجية ، أثناء قيام طائرات العدو بمهاجمة الضفة الغربية لقناة السويس بمئات الأطنان من القنابل زنة ١٠٠٠ رطل و ٢٠٠٠ رطل على مساحة ١٧٠ كيلو مترا من بورسعيد الى السويس .

كان ذلك يوم ١٤ مايو ١٩٧٠ .

أعلن الراديو النبأ ، وأعقبه بأغنية « دوس على كل الصعب وسير » ! ..

***

صرخت البنت وداد .. عندما رات الدماء تغطى وجه أبيها « على الطواب » وامتزج صراخها بأنين الجدران المنهارة ،غطى التراب وجهها الأبيض الجميل وشعرها الأسود الطويل ، وانشق ثوبها الدمور الباهت ، فظهر صدرها الذى طالما اشتهاه الجميع ، كانت الدماء تنبثق من عينى ابيها ، فضمت وجهه الى صدرها ثم حملته بعافية غريبة تفجرت بداخل جسدها النحيل ، وابتعدت

به عن الدار المحترقة المنهارة .. وفى الحارة الضيقة انخبطت فى الحاج نور الدين تاجر الغلال المعروف بطيبة القلب فى « أولاد كنانة » وما يجاورها من قرى وكفور — فأحست وداد بقليل من الأمان وهى ترى الرجل يحمل معهـا أباها حتى دخـلا به صحن الجـامع فصاحت وداد :

— « يارب انت على الظالم » .. ثم سبت العدو بألفاظ بذيئة ، وانهمك الحاج نور الدين لحظة فى محاولة ايقاف دماء على الطواب ، وربط عينيه بمنديله المحلاوى ، لكن الدم ظل يسيل .. بلل يديه .. أخافه .. لكنه قال — محاولا التماسك :

— « شدة وتزول ياوداد » .. ثم هرول خارج الجـــامع الصغير ، بحثا عن الجرحى والمصابين .

***

سقطت الجريدة من يد « طاهر » .. كانت تحمل تاريخ وصوله الى القرية منذ ستة أيام فى اجازة أعطاها لنفسه بعد أن حاصره الاعياء وقلة النقود والحاح صديقته « عزيزة مختار » فهرب من القاهرة الى أبيه « عطية الصعيدى » فى « أولاد كنانة » .. كان « طاهر » وحيـــدا فى الدار ، ماتت أمه بعـد شهـور من وصولهم نبأ استشهاد أخيه الأكبر « مراد » فى حرب يونية .. لكن الغارة فاجأته .. و .. هدمت الدار فانفلت يجرى .. وفى غيط السمسم وجد أباه « عطية الصعيدى » قابعا فى ذهـول بجوار بئر عميقة واسعة حفرتها قنبلة وسط السمسم الـذى احترق ما تبقى منه . حاول أن يواسيه .. قال :

— « المهم انك بخير ! .. » لكن أباه نظر اليه بعينين تملؤهما دموع الغيظ ، وقال :

ـ قتلوا اخوك مراد .. وخربوا الفدان ..

.. عاد طاهر يحاول تهدئة والده .. جلس بجواره ، قال :

ـ « الحرب يابا .. و .. » لكنه صمت ، عندما رأى اشلاء البقرة متناثرة حوله وفوق حافة البئر العميقة ، وهرب بنظراته بعيدا ، فلمح حمارة ابيه العجوز ـ تقف ساكنة غير بعيد ، وخمن أن النجاة كتبت لأبيه لأنه كان بحمارته فى مشوار قصير .. لم يكن يعرف أن اباه كان يبحث له عن نقود لدى بعض معارفه فى الكفر القريب .. قال :

ـ « شدة وتزول يابا .. » هز عطية الصعيدى رأســه ، مستغيثا بالصبر ، ولا يعرف طاهر كيف تذكر زميلته « عزيزة مختار الأرناؤوطى » ولثغة الراء فى لسانها تلسعه وهى تحــكى له كيف فاتحت اباها فى الموضوع ، وانه قد أعجب به عندما رآه معها « واخفت عنه استخفاف ابيها به » واضافت : « عندما تعود من اجازتك سيكون أبى قد دبر لك عملا عند احد معارفه » ، ظل طاهر صامتا ، لم يقل لها انه يخمن أنه لم يعجب اباها والا لوجد له عملا فى مكتبه فأعماله كمحام ناجح تحتمل عددا لا بأس به من الموظفين .. وشدت على يده بمودة قبل سفره وقالت :

ـ « لابد أن تحتمل .. فالمشاكل لا تجتاح غير الضعفاء » صاح أبوه عطية الصعيدى : ـ « وآخرتها ياناس ! .. » ثم نهض واتجه بخطوات قلقة الى القرية المحترقة .. أراد طاهر أن يخبره « أنه سيعود الى دراسته بعد أيام ، وانه سيجد عملا بأجر يدبر به مصاريف الكلية والمســكن وخلافه وانه ســيتمكن من ارســال بضعة جنيهات له .. وان الدنيا مازالت بخير « ولكن أباه كان يسرع الخطى متجهما فاكتفى طاهر بمحاولة اللحاق به ..

***

اهتزت الدنيا فجأة وتعلقت أنظار « أولاد كنانة » بالسماء ، ولمحوا طائرات كثيرة تشق الدخان والسحاب .. وتختفى فى أقل من لمح البصر ناحيـة القنـاة التى تبعد عنهم مسـافة ثلاثة كيلو مترات وامتلأت أعماق الذين جرحوا والذين كتبت لهم النجـاة بدعاء عميق لم تسفر عنه الشفاة المزمومة بعنف .

***

فى دار الحـاج نور الدين ، بالتحـديد فى الجـزء المتبقى منها ، كانت ابنته « ليلى » التى حصلت على دبلوم معهد المعلمات، وعينت منذ شهور معلمة بمدرسـة البلدة ، كانت تحـاول ان تتماسك بصورة أفضل ، وهى تضم اخوتها الصغار بين ذراعيها ، ثم تذكرت فجأة أن أمها غير موجودة .. أن اباها غير موجـود ، كانت تعرف أباها جيدا ، فهى تعاشره منذ سنوات عمرها الخمس والعشرين ، واعتادت أن تراه مشغولا بأهل القرية وشئونهم أكثر مما ينشغل بأمرها هى وأمها والدار .. تذكرت ان امها كانت فى غرفة المعاش تعد لهم الغذاء ، أسرعت اليها ، ازاحت باب الغرفة المنهارة ودخلت ثم ، برغمها صرخت ، كانت أمها هنـاك بجلبابها الأسود المنقط بأبيض ، وطرحتها السوداء ، وضفيرتيها الطويلتين ، وشبشبها الذى اشترته لها ليلى ضمن هديتها يوم نجاحها فى الدبلوم .. لكنها كانت ساكنة تماما .. وقد التصق دماغها المهشم بزكيبة القمح « وزلعة السمنة » .. وزعقت مذعورة تنادى على أبيها « الحاج نور الدين » .

***

فى دار « عرضحالجى أولاد كنـانة » مرسى المنفلوطى ، كانت ابنته « سميرة » وحدها مفزوعة ، وبجـوارها الراديو الترانزستور يذيع أغنية « الهوى هوايا » على محطة أم كلثوم ..

حيث كانت قبل الغارة ، تستمع اليها واشواقها تحلق بها الى دكانة الولد حسنى الترزى ، الذى لم تره منذ قال لها أنه مسافر الى الزقازيق ليشترى شعرا لحشو جاكتات زبائنه واصوافا لزوم طلبات أولاد كنانة ، لقد طال انتظارها لعودته ، لتسعد بالجلوس معه قليلا ، خاصة عندما سافر أبوها مرسى المنفلوطى هو وزوجته الجديدة « عطيات » الى « مصر » لزيارة شقيقها ، كما قالا — لكن البنت سميرة كانت تعرف بذكائها أنهما ذهبا لطبيب يعالج الست عطيات هانم لتنجب لأبيها ولدا .. فقد رحلت أمها بعد أن فقدت أولادها الأربعة .. وبقيت هى « سميرة القمورة » .. وعندما رأت أكوام الهدد أمامهــا أحست بأن أمهـا ما كان يصح أبدا أن تموت وتتركها وحيدة هـكذا ، وانهمرت الدموع على وجهها الشاحب .. لكن العناد ركبها ، فرفضت أن تترك الدار ، وتمنت لو أن جدارا انهار فوق دماغها ليقتلها ويريحها من زوجة أبيهـا « عطيات هانم » ومن أبيها مرسى المنفلوطى الذى حرمها من اكمال دراستها بحجة أن المشوار بين « أولاد كنانة » والمدرسة الاعدادية طويل و .. انه يخشى عليها و .. وجـدت نفســها تسب الولد حسنى الترزى الذى يتعبها بغيرته عليها من الهوا الطاير ، ولا يكف عن اتهامها بأنها لا تحبه كما يحبها .. والا فلماذا لا تذهب آخـر النهار الى دكانته و .. سقط كوم من التراب والقش وقفز أمامها فأر ضخم ، فهرولت زاعقة الى الحارة ، فانخبطت فى البنت وداد التى كانت تبحث عنها ، بعد أن استعادت هدوءها واطمأنت لوجود أبيها مع الحاج نور الدين وأهل القرية فى الجامع .

.. أخذتها وداد من يدها ، لكن البنت ســمیرة توقفت مأخوذة ، فهى لم تتعرف على البنت وداد بسرعة ، وكل ما رأته أمامها، امرأة مهوشة الشعر، معفرة،والدماء على جسدها الذى يظهر من جلباب مشقوق وأيقنت أنها وقعت فى يد « أمنا الغولة » فأسقطت نفسها على الأرض وراحت تصرخ ، لكن وداد حملتها

وهي تحاول أن تتذكر آية الكرسي لتقرأها في اذن سميرة التي بدت كمن ركبها الجن فجأة .

***

لا يذكر أحد من أولاد كنانة ، متى رجعت الطائرات التي رأوها تتجه صـــوب القناة ، لكنهم تذكروها عندما سمعوا بيانا عسكريا يعلن : ((أن قواتنا الجوية قامت بتوجيه ضربة قوية لمواقع العدو في ((بالوظة)) و ((بير تمادة)) ودمرت له مركز رادار .. وعددا من آلياته ومواقع صواريخه ..)) و .. اذاع الراديو أغنية : فات الكتير يابلدنا .. ما عاد الا القليل ..)) و .. علق أحدهم قائلا :
ــ ((ما أكثر الباقي .. وما أمره !))

وقال الحاج نور الدين :

ــ ((وبشر الصابرين ..)) ثم سكت فجأة عندما لم يجد زوجته وابنته ليلى والصغار .. بين الموجودين في صحن الجامع، و .. استدار مهرولا الى داره .. ولحق به عطية الصعيدي وابنه طاهر ، و .. عند أكوام الهدد ، رأى ابنته ليلى ، وأدرك من نظراتها كل ما حدث .. فاستغاث بالله في سره ، وطلب من طاهر أن يبحث عن حمار او دراجة ليسرع الى البندر ، أو أحد المواقع العسكرية ليعود بالاسعاف والمطافيء ثم .. اتجه الى ابنته ليلى وصغاره ، واحتواهم بذراعيه ، وفي صمته المفعم بشتى مشاعر الغضب والألم ، دعاهم بأصابعه الحانية فوق رؤوسهم ، وبنبضه المتدفق في عروقه ، الى أن يحتملوا .. أن يتماســكوا .. أن يكونوا رجالا .. ثم قال لـ (ليلى) مؤنبا :

ــ كفى عن البـــكاء يابنت ! .. ((وأسرع يضيف بأبوته المعهودة)) : ((من أجل الصغار .. ومن أجلي أنا أيضا .. ! ..))

و .. بذل جهدا شاقا حتى لا يبكي أو .. ينهار !

فى الدقائق التالية ، توقفت عربة اسعاف تابعة للجيش أمام الجامع ، وهبط منها طبيب واحد مساعديه ، وفى الوقت الذى انهمكا فيه فى تضميد الجراح ، كانت هناك جماعة أخرى من الجنود تثبت خراطيم المياه فى ماكينة شفط وضعوها على شط ترعة الاسماعيلية وانطلقوا يخمدون الحرائق ومعهم « عطية الصعيدى » و « الحاج نور الدين » وغيرهما من القادرين على الحركة .

بقى طاهر مع الطبيب المجند « سمير مرقص » يحاول أن يساعد فى اسعاف الجرحى ، وهو ينظر من حين لآخر الى وداد . كان يعاكسها كثيرا قبل دخوله الجامعة، كان يحلم معها، قبل أن يلتقى بزميلته « عزيزة مختار » وينشغل بها ، فجأة صرخت وداد :

– « ابويا ! .. »

ابتسم لها الطبيب مشجعا ، وعدل نظارته الطبية على عينيه وحاول أن يشرح لها – « اصابته ان شاء الله خفيفة . لكن لابد من كشف دقيق على عينيه ، وفى المستشفى سيكون علاجه أكيدا .. »

لكن وداد عادت تزعق بألم شديد ، علها تعبر عن شعورها بالوحدة من غير أبيها ، لقد رحل شقيقها الأكبر ليعمل صيادا فى رشيد ، وقالوا أنه تزوج هناك و .. ظلت هى مع أبيها « على الطواب » فى « أولاد كنانة » يلتقطان رزقهما من العمل فى بناء البيوت والمقابر ، وفى حالة ركود الحال ، كانا يعملان فى اصلاح بوابير الجاز أو الأحذية ، فى ملء المياه من طلمبة الحكومة لبيوت الموظفين أو فى زراعة الغيطان ، فى جمع الفواكه من الجناين ، فى تنقية القمح والأرز والفول من الشوائب فى مخازن الحاج

نور الدين .. وداد تعرف هذا الشقاء منــذ كانت طفلة .. ثم شربته حتى امتزج بدمها .. والتصق بجلدها .. و ..

واذا جرى لأبيها شيء فستموت ..

قال لها طاهر : « سيكون بخير فاطمئنى واهدئى .. »

لكنها ضربته فى صدره بيديها لتبعده عن طريقها ، وحاولت اللحاق بأبيها الذى نقله الطبيب ومساعده الى سيارة الاسعاف مع غيره من الجرحى .

كان من الصعب اقناع وداد بالبقاء مع غيرها فى صحن الجامع ، لكن أبله ليلى شدتها فى حضنها وربتت على كتفهـا . فانهارت البنت وداد تبكى ، وعندئذ سألتها البنت سـميرة بنت مرسى المنفلوطى العرضحالجى :

ـ « انت خايفه يا وداد (.. »

بذلت وداد جهدا كبيرا لتكف عن البكاء ، دون أن تلحظ نظرات البنت سميرة التى راحت تقارن فى سرها بين جمالها هى وجمال « وداد » التى رأتها مرتين تتكلم مع الولد حسنى الترزى .. وحاولت ـ فى سرها أيضا ـ أن تنسى مايشاع عن علاقتهما !.

***

.. فى الصباح التالى ، كانت العيون أكثر تورما ، والوجوه أشد شحوبا ، والبطون أكثر جوعا ، فهم على مايظهر قد انتهزوا فرصة الليل والتظاهر بالنوم ، وبكوا فى صمت .. كمـا انهم لم يجدوا شهياتهم ليأكلوا الطعام الذىحمله عدد من الجنود اليهم .. كان الحزن يملأ نفوسهم لفقد البيوت والمواشى وبعض الزوجات والأطفال ولكنهم عندما اعدوا مقبرة واسعة بجوار مقابرهم القديمة

التى دمرتها قنابل الغارة ، ادركوا ان ما حدث لا يطاق ، وصرخ بعضهم وانخرس آخرون .. وبعد وقت قال الحاج نور الدين بصوت لا يخفى أساه :

ـ « والكاظمين الغيظ .. » ثم سكت وراح يعمل بفأسه مع أولاد كنانة فى تعميق المقبرة التى سرعان ما ضمت ضحايا الغارة الهمجية ، وفى نفس اللحظة ادركت البنت وداد أن لقمة العيش ستصبح نادرة اذا فقد والدها على الطواب عينيه ، اذ لن يقدر على بناء بيت أو قبر وستجوع معه اذا عاش لها ، وستعود تدق أبواب الموظفين وغيرهم من الشبان العزاب و .. وامتزج عويلها بلعنة تصاعدت من بعض الرجال استنكارا لنذالة العدو وخسته ، ولطمت «وداد» وجهها ، وتمنى «طاهر» أن يواسيها . أن يضمها الى صدره ، أن يحمل عنها آلامها ، كان يقول لها قبل أن يدخل الجامعة :

ـ « سأخطفك على حصان أبيض واطير بك بين السماء والأرض .. »

و .. كانت لحظتها تضمه أكثر الى صدرها .. فى لقاءاتهما المعتادة بأرض الجناين .. و ..

كانت تضحك له ، فيزداد وجهها الأبيض توردا ويصبح أكثر جاذبية ، وكان يسألها عن سر بياض لونها مع أن اباها أسمر ، فكانت تقول له :

ـ « أنا طالعة لأمى ، كانت بألف راجل زيك ! .. »

كانا يضحكان دون ان يخجلا من احد ، كانا صغيرين ، يلهوان ويحلمان .. وعندما كبرا قليلا ، تركته يصدق ما يقوله الناس عن جريها وراء الموظفين فى القرى والكفور المجاورة ، ولما سألها مرة فى لحظة غيرة جامحة ، صدمته بقولها :

ــ « انت مالك ومالى .. أبويا والا أخويا ؟! »

لكنها لم تقل له أنها تعمل عند هؤلاء الموظفين من أجل لقمة العيش والقرش .. لم ترض أن تحدثه عن فقر أبيها .. حتى لو كانت البلد كلها تعرف ذلك ، أدركت ذلك بفطرتها ، فهى لا تفك الخط لكن جمالها ينطق الحجر ، حاول طاهر أن يقترب منها ليواسيها ، بعد أن أغلقوا المقبرة ، لكن والده عطية الصعيدى استند بثقله على كتفه .. وسار معه .. سأله :

ــ « هى مصاريف الكلية وأجرة سكنك وتمن الكتب تيجى كام جنيه ياطاهر ؟! .. »

فوجىء بالسؤال .. ظل يفكر فى الاجابة برهة طويلة ، رغم أنه كان يحفظها قبل الغارة ، فكر أن يقول لأبيه أن عزيزة مختار زميلته كلمت أباها ليجد له عملا بأجر معقول و .. لكن أباه عاد يسأله :

ــ « وانت عايش ازاى فى مصر ؟ .. »

.. وانبعث من وجدانه وجه عزيزة مختار ، التى أحبها لصدقها معه ، قالت له يوم تعارفا فى مكتبة الكلية :

ــ « مشكلتك انك لم تكسر توقعتك الريفية بعد .. »

ابتسم لها بخجل ، حاول أن يشرح لها ظروفه العائلية لكنه تلعثم وسكت عندما أمسكت يده بأصابعها فى مودة ، وداعبته قائلة :

ــ « فى وجهك وعينيك براءة مخيفة ! .. »

يومها ضحكت عزيزة ، واعترف لها أنه يجهل أشياء كثيرة ، فأخذت تحدثه عن الأفلام والمسرحيات التى شاهدتها والقصص

التى قرأتها ، عن أحلامها ، وعن متاعبها مع شـقيقها ماهر .. الذى لا يواظب على محاضرات الكلية ، عن انشغال أبيها ليل نهار فى عمله وعن أمها الطيبة الحنون ، و .. روى لها كيف مرضت أمه وماتت عندما عرفت باستشهاد شقيقه « مراد » وعندئذ قالت له :

— « لديك أسباب قوية لتكسر القـوقعة ، وتتخلص من سـلبيتك » .

مزق الصراخ أعصابه ، تناثرت كل تصوراته ، استدار فرأى وداد تسير أمام الرجال والنساء الجرحى وتصرخ ، كانوا يقتربون من بقايا بيوتهم .. كانت آثار الحرائق واكوام الهدد فى كـل شبر .. تعلن لهم حجم المصيبة ، وتملأ صدورهم بالخوف .. بالغضب ، زعقت «وداد» فى آهة مشروخة :

— « آه يا بلد ! .. »

أسرع اليها طاهر ، هزها بيديه بقـوة ، قال لها من بين أسنانه :

— « لا ياوداد .. لا ... »

أحاط بهما الرجال والنساء ، رآهم يحملون هم الدنيا كلها فى نظراتهم الزائغة .. ووجوههم المصوصة ، زعق فيهم :

— لأ يا أولاد كنانة ..

هزه أبوه :

— « اهدأ يا طاهر .. »

ملأه زعيقهم بالألم ، تفجرت كل أحزانه ومشاكله قال :

ـ « افهمونى .. هذا الدمار الذى اصابنا به العدو .. يجب ان يزيدنا حقدا عليه .. على الثار منه .. ان هذا العدو المجنون هو السبب فى مشاكلى ومشـــاكلكم جميعا .. فلناخذ حذرنا .. والا نهشنا انفسنا دون أن ندرى ! .. »

صمت الرجال .. صمتت النساء .. كان طاهر يزعق بانفعال شديد ، كانت كلمــــاته تصطدم بأحزانهم ، قالت وداد فى ألم

ـ « يا طاهر افندى .. هو الكلام بيحيى الأموات والا بيشفى المجروحين ! .. »

اقترب منها ، وجد نفسه بجوارها ، يهز كتفيها بيديه وهو يقول بكل ما فى عقله وقلبه من حب قديم لها :

ـ « غارة العدو علينا ليس هدفها هدم البيــوت وتخريب الأرض فقط .. ان هدفها هو أن نيأس .. أن نظل نزعق هكذا حتى نموت أو نجن فنسلم له بكل ما يريد .. »

صرخت وداد فى وجهه بضيق ، أشد من ضيقها منه يوم نسى كل وعوده لها فى لحظات العشق والمحبة .. الماضية و .. قالت :

ـ « شعبنا خطب وكلام ! .. » وعندئذ ارتفع صوت الحاج نور الدين وهو يستند بذراعه على كتف ابنته ليلى :

— « العقل والدين يا أولاد كنانة .. العقل والدين .. »

**

عندما اقتربوا ، فى موكب مكتوم ، من بقايا دورهم .. توقفوا على بعد خطوات قليلة وتبادلوا نظرات قلقة .. فقد رأوا مشهدا غريبا . كانت هناك عربة نقل تقف الآن فى مدخل البلدة، ويهبط منها عدد من الجنود انطلقوا بسرعة فى الأزقة والحوارى التى اتسعت وامتلأت بأكوام الهدد .. وصعب على الجميع التخمين بما يحدث .. فأخذوا يقتربون من بيوتهم المحطمة بحذر شديد ! ..

الفصـــل الـثــانى

الاقـــــتـــراب

كانت بقايا الجدران تقف شامخة ، والجنود يبحثون عن المفرقعات الموقوتة بحذر شديد ، وتململ أولاد كنانة .. جلسوا فى مشارف البلدة ينصتون الى الملازم ، كان يحدثهم عن خسة العدو ، وعن الشراك الخداعية التى ترميها الطائرات المغيرة ، لم يكن أحد قد عرف اسمه بعد .. سأله عطية الصعيدى : « وآخرتها يا سيدنا الافندى ؟! .. » ابتسم الملازم ، وقدم نفسه بمودة :

ــ « اسمى الملازم مراد .. » زعق عطية وهو يهز كتف ابنه طاهر :

ــ اســـــمه مراد .. مراد يا طاهر .. أخوك الغالى اللى راح .. ! »

غلبه الانفعال ، غطى عينيه براحتيه ، هزته نوبة بكاء ، قال طاهر مواسيا ومشجعا :

ــ « البركة فيك انت يابا .. »

اقترب منهما الملازم ، بقامته المديدة ، النحيلة ، الصلبة ، ووجهه البشـــــوش ، الأسمر ، انحنى على عطية الصعيدى ، وقال له :

ـ « أبى رجل طيب مثلك تمام يا حاج .. »

أسرع طاهر يقدم أباه ، والآخرين للملازم :

ـ أبى .. عطية الصعيدى ، فلاح ، يملك فدان أرض ، حفرت فيه قنبلة العدو بئرا عميقة و .. الحاج نور الدين .. تاجر غلال معروف فى أولاد كنانة وما يجاورها ، وحصــل من الاصلاح الزراعى على خمسة فدادين فى أرض الجناين .. وابنته أبلة ليلى .. مدرسة بمدرسة أولاد كنانة التى انهدمت مع دورنا فى الغارة . و .. الست وداد .. بنت « على الطواب » الذى بنى بلدتنا «أولاد كنانة» وكل القرى والكفور المجاورة .. وسالت دموع وداد فى صمت ـ وانفلتت البنت ســميرة من بين طاهر والملازم مراد وهرولت على الطريق عندما لمحت الولد حســنى الترزى قادما بدراجته من بعيد .. تابعتها وداد ، نسيت آلامها ـ دون أن تدرى ـ كادت تصيح : « شوفوا البنت أم عين جريئة » .. لــكن خوفهــا على أبيها أســكتها ، وتمنت فى سرها أن يأتى اليوم الذى ترقص فيه وتغنى فى فرح البنت سميرة والولد حسنى الترزى ثم تذكرت كيف كان يعاكسها كلما رآها تمر أمام دكانته :

ـ « يا وداد .. القلب مشتاق للوداد ! .. »

دعاهم الملازم مراد الى خيمة أقامها بعض جنوده فى مدخل البلدة . جلسوا متقاربين ، لم يحدث من قبل أن أحسوا هكذا بأنفسهم .. الآن اكتشفوا أن الواحد منهم كان فى عزلة طويلة عن جاره ، تلاصــقت أكتــافهم ، تلامست أيديهم ، جمعت بينهم الأربطة فوق الجــراح ، والأحاديث المتقطعة عن الذى حــدث ، حاولوا أن يفهموا الأسباب ، خمنوا ما سيحدث .. قال الحــاج نور الدين ، وقد زلزلته خســارته فى زوجته رفيقة العمر ، وفى مخازن الغلال ، اسرع يقول :

ـ « مازلنا أقوياء يا أولاد كنانة .. هه ! .. »

وصمت برهة طويلة ، أخذ يحتوى وجوههم ، جراحهم ، بعينيه ، تذكر يوم قبض عليه الانجليز وهو يهرب بعض الأسلحة فى زكائب القمح الى الاسماعيلية وضربوه و .. قال بصـــوت تتماسك نبراته ببطء :

ـ ياولاد كنانة .. لا تهنوا ولا تحزنوا .. »

وحاول اقناع نفسه أيضا بذلك ! ..

و .. فأجأهم أحد الجنود وهو يدخل عليهم حاملا الطعام :

ـ « تعرفوا يا جماعة .. اننا أهل .. أقارب .. أولاد عم .. اخوال .. اخوات .. »

كان الملازم مراد ينصت الى الرقيب مصطفى ، ويتذكر مرحه وبشاشته وصلابته فى المواقف الحرجة التى مر بها هو وجنوده فى الشهور الطويلة الماضية ، اقترب منه ، داعبه بجذب خوذته على وجهه قليلا ثم عدلها له .. وقال :

ـ « صدقت يا درش ! .. » ثم أخذ يوزع معه الطعام والشاى على أولاد كنانة .. وازداد حنين الرقيب مصطفى الى بيته فى « ميت الشيخ مركز قطور غربية » .. وقعدته فى حوش الدار مع زوجته « منيرة » وابنهما « عاطف » .. انه لا يراهما منذ سنوات طويلة الا فى اجازته الشهرية القصيرة ، قال الطاهر :

ـ « تعرف يا طاهر أفندى .. فيك شبه كبير من ابنى عاطف .. فى الثانوية العامة السنة دى .. ولد فصيح من صغره .. شاطر .. ونفسى أنه يسافر بعثة .. ويكون مخترع كبير ..

هه .. أحلام يا طاهر .. » واقتسما كوب الشـاى ، وأكملا حديثهما فى مودة شديدة .. كأنهما تعارفا من ألف سنة .

وصل مندوب الحكومة فجأة .. وأخذ يوزع الاعانات المالية العاجلة التى تقررت لأولاد كنانة ، فأحسوا ببعض العزاء ، تخففوا من بعض أحزانهم .. أخيرا قال المندوب :

ــ « والرأى عندى أن تهاجروا الى .. »

قاطعة عطية الصعيدى غاضبا ، وهو يشوح بيده !

ــ « لأ .. كفاية اللى هاجروا مننا .. »

حاول المندوب أن يشرح لهم ظـروف الحـرب ، وحرص الحكومة على حياتهم و ... اشترك اللازم مراد فى الحديث ، فصارحهم بأن العـدو كما عرفوه « يضربنا بكراهية وحقد .. » و .. قال الحاج نور الدين :

ــ « بيوتنا هنا .. أرضنا هنا .. وعلينا أن نصـلح ما تهدم .. »

عاد عطية الصعيدى يوضح لهم رأيه .. قال :

ــ أنا دافن هنا سبعة من عيالى .. ومراتى .. وابنى مراد انعدفن برضه قريب من هنا .. يبقى أسـيب الفدان والدار ليه ؟! .. »

لم يقل لهم أنه رهن الفدان فى العام الماضى ، لعبد الودود البقال لكى يدبر النقود اللازمة لدخول ابنه طاهر الجـامعة ، لم يقل لهم أنه مازال عاجزا عن سداد الدين الذى أخذه بالفايظ .. لم يقل لهم أنه لا يعرف كيف يدبر مصاريف طاهر للسنين الطويلة القادمة .. لكنه عاد يقول بعناد :

ـ « حنفضل كلنا فى أولاد كنانة .. مش حنهاجر ! .. »

ثم غلبه الألم فصمت و .. مسح عينيه بكم جلبابه الممزق المغبر .. وابتلع احساسه بالضعف ..

و .. قالت البنت وداد :

ـ « أخويا عملها وهرب لكن أبويا فضل هنا .. »

لم تقل لهم ان أباها لا يملك كعب غابة فى أرض أولاد كنانة .. ولم تقل لهم ان داره كانت أيلة للسقوط من سنين رغم أنه يبنى دور البلد ، لم تقل لهم انها حفيت فى المشى ليل نهار من « أولاد كنانة » الى القنطرة .. والاسماعيلية وفايد والسويس .. بحثا عن الموظفين لتعمل عندهم فى مواسم الكساد مقابل قروش قليلة ، لم تقل لهم أنها عملت شهرين عند موظف فى القنطرة وظنت أنه سيتزوجها كما وعدها لكنه ضحك عليها وخدعها . لم تقل أنها خائفة على عينى أبيها « على الطواب » .. ولم تقل لهم انه اذا عمى ستسحبه ليشحتا لقمة العيش امام الجوامع وفى الأسواق .. لم تقل لهم أنها تحب الجناين هنا .. أول مكان عرفت فى ظله وظلامه الحب مع « طاهر » و .. قالت أخيرا .. وبعد صمت طويل :

ـ « عمرنا وشقانا هنا ؟ .. »

لفهم الصمت لوقت طويل ، لم يلحظوا البنت سميرة والولد حسنى الترزى وهما يجلسان فى صمت بينهم ، احتوى الجميع شعور عات بالتقارب ، بالتجمع ، بالتماسك ، ازدادوا التصاقا ، ربما فزعا من الخوف .. لا أحد منهم باح بتفسير واحد لشعورهم بالتوحد فى هذه اللحظة ، فجأة سمعوا صوت على الصعيدى :

ـ « قوللى يا حضرة الملازم مراد .. هو ممر متلا ده قريب من هنا ! .. »

نكس طاهر رأسه . جلس الملازم أمام عطية الصعيدى ، أخذ يرســــم بأصبعه خريطة على الأرض ، حفرها فى التراب وشرح له المسألة كلها .. تحول ألم طاهر الى خجل .. الجميع فى أولاد كنانة يسمونه « طاهر أفندى » فهو الوحيد الذى دخل الجامعة « من أولاد كنانة » .. أوصلوه الى محطة القطار البعيدة فوق الركايب فى العام الماضى ، أوصوه بأن يرفع رأس أبيه عطية الصعيدى ، وأن يشرف أولاد كنانة .. كانوا يقولون لابيه يومها : « احنا معاك .. من قرش لجنيه .. لغاية ما طاهر أفندى يأخذ الشهادة الكبيرة .. » وعزموا عليه بنقود .. ضربوا ايديهم فى جيوبهم وتركوها وعرف يومها معنى كلامهم : « العين بصيرة والايد قصيرة .. » ، لسعته كلمات زميلته الحبيبة « عزيزة مختار » :

ــ « ان مشاكل الانسان لا تبرر جهله بأمور الحياة ! .. »

.. يومها قدمته لأبيها فى مكتبه الفاخر بوسط القاهرة ، وبلله العرق و « مختار بيه » يتفرسه بعين مثمن خبير ، ويمط شفتيه باستخفاف ملحوظ .. نهض مستأذنا فى الخــــروج ، أسرعت عزيزة وراءه ، رافقته فى الطريق ، قال لها :

ــ « قد أبدو لك انسانا غريبا ، متخلفا ، لأننى أجهل حياتكم فى القاهرة .. »

قالت له :

ــ « لا تكن قاسيا مع نفســـك .. انك لا تعرف أبى .. لكنه .. قاطعها قائلا :

ــ « لم أغادر أولاد كنـــانة قبـــل الآن .. كنت أذهب الى المدرسة الثانوية فى القنطرة وأعود آخر النهار لأنام فى دارنا كانت الرحلة طويلة .. متعبة ، كان العمل مع أبى فى الفدان الذى يملكه يأخذ بعض الوقت .. كنا نعمل أنا وهو فى غيطان الجيران»

قالت عزيزة :

ـ مجاملة رقيقة منكما للجيران ؟ .. »

قال طاهر .. بصوت ممرور :

ـ ليست مجاملة .. اننا فى أولاد كنانة ، كما نستدين من بعضنا القروش وأرغفة العيش والملح وبصبوص النار ، نتبادل ديون العمل أيضا ، كل منا يعمل مع جاره ، على أن يرد اليه الدين كيلة ارز .. قفص طماطم .. شوية فاكهة ، سمسم ، ريال ، فاس ، محراث ، جاموسة تزامل بقرته فى رى الأرض ، انها حياة غريبة عليك يا عزيزة ، لكنها تسير بنظام دقيق وبغير اتفاق سابق .. لقد ولدنا جميعا هكذا .. نبحث بالغريزة عما يساعدنا على قهر الجوع والفقر .. لكننا لم ننجح أبدا .. »

ضغطت عزيزة على ذراعه باعجاب ، مسحت راسها بكتفه فى مودة ، داعبته بقولها :

ـ « لقد دهش أبى لأنك لا تجيد أعمال السكرتارية .. ولا تفهم فى أعمال المحاماة .. لكن لا تشغل بالك ، لقد وعد بالبحث لك عن عمل مناسب لدى بعض معارفه » .

قال وهو يجذبها ليعبرا شارع سليمان باشا :

ـ « تتعبين نفسك بسببى ! » تغاضبت ، وهى تقول :

ـ لأننى أحبك يا طاهر ؟! .. ألم أقل لك ذلك من قبل ! .. »

توقف طاهر .. دق قلبه ، انها المرة الأولى التى يسمع فيها هذه الكلمات ، ضغط ذراعها ، نبهته انهما فى الطريق وان الناس يحدقون فيهما ، واصلا سيرهما ، كانت فى مثل جمال البنت وداد ، طويلة اللسان مثلها ، طلب أن يجلسا على انفراد ليحدثها .. فابتسمت له وسألته :

ـ اين ؟ .. فى غرفتك بمساكن الطلبة .. أم فى كازينو على شط النيل !

أحمر وجهه ، من سنين قالت له وداد :

ـ « عاوز تشوفنى فين ؟ .. فى دارنا والا فى داركم ، والا فى غيط الجناين ؟! .. »

قال طاهر : لا تسيئى الظن بى ؟! .. »

قالت عزيزة محذرة ، دون أن تفقد مرحها :

ـ « اياك ولعب العيال .. دعك من مراوغات الشبان الذين لا يحملون للدنيا هما .. ولا تكن مثل أخى ماهر الذى قطع السمكة وذيلها .. »

داعبها بقوله : « لو تكفين لحظة عن الوعظ والارشاد .. لأحببتك أكثر .. »

ابتسمت وقالت : « هذه بداية طيبة .. »

و .. انتبه على صوت الرقيب مصطفى يداعبه :

ـ « صح النوم يا طاهر أفندى » .

تلفت حوله .. فزع قليلا ، لقد نام ، لكن أين أبوه .. الناس .. أولاد كنانة .. وقف ملهوفا .. سأل :

ـ « هاجروا .. ؟! »

ضحك الرقيب ، واعطاه نصف كوبه من الشاى ، وقال :

ـ الرجال أمثـــالنا لا يهاجرون بخطرهم أبدا يا ابنى .. الفلاحين من جدودى ماتوا دون أن يهربوا من غيطانهم .. فى مرة تعارك أبى مع صاحب الأرض .. أصـل أبى يؤجـرها منــه

بالمزارعة ، تعـارك معه وضربه عندما اتهمه بانه لا يرعى الزراعة كما يجب .. واجتمعت البلد حولهما وسـمعوا أبى يقول له بعلو صوته :

ــ « انا قلبى أحن على الأرض أكثر منك انت ! .. »

وضحك الرقيب مصطفى وقال :

ــ « أولاد كنانة على حق .. الأرض هنا فى حاجة اليهم .. »

***

فى دار « على الطواب » ، تجمعوا دون اتفاق .. وتعجبت وداد من حكمة ربنا ، دارهم ، القديمة التى كانت تسخر منهـا ما زالت صالحة للسكن ، كانت دائما تقول لأبيها :

ــ « الدار هى اللى مميلة بختى ومطفشة العرسان منى » فلما كان يلومها بقوله :

ــ « اسكتى يا مقصوفة الرقبة .. »

كانت تضحك وتقول له :

ــ « صدق اللى قال .. باب النجار مخلع .. »

كانا يضحكان كصـديقين ، كشقيقين ، كأم وابنها ، كأب وابنته ، فتحلو لهما الحياة التى تبدو الآن انها ما زالت بخير . فهاهم بعض الجنود يحملون اليهم البطاطين وبعض القش و .. ادركت وداد انها سـعيدة ، الفرحة تتولد ببطء فى رحمها .. فى حوضها .. فى بيت الولد .. فى أعمق أعماقها .. انطلقت تقوم بدور المضيف لأهل بلدها ، أخـذت جـوالا من الدقيـق الـذى جاء به مندوب الحكومة وراحت تعجنـه ، شـمرت جلبابها المشقوق .. تورد وجهها الذى علق به الدقيق وهى تبعد شعرها

الطويل عن عينيها ، اشعلت أبله ليلى الفرن ، جلست البنت سميرة وسط النسوة والبنات واخذن يخبزن العيش ليجد الرجال والعيال ما يأكلونه عندما يستيقظون ، لقد ناموا دون قصد منهم .. تساقطوا فوق التراب والطوب .. تمددوا بجوار بقايا الجدران .. كانوا جميعا فاغرى الأفواه .. ناموا فى اغماء وبينهم بقايا كلمات .. بعد أن هدهم ما حدث لهم فى الغارة التى جمعتهم لأول مرة جنبا الى جنب فى دار « على الطواب » ..

***

وقف طاهر يتابع المشهد فى صمت .. لكن .. فجأة تثاءبت ذكريات كثيرة وتزاحمت فى وجدانه .. انه لا يذكر أنه رأى ابله ليلى تجلس أمام الفرن من قبل ، اكتشف للمرة المليون أنه لم يخاطبها غير مرات قليلة ، اذا تصادف وتقابلا فى الطريق الى المدرسة فى أى صباح ، كان يشعر أن الفارق المادى بين أبيها وأبيه يرتفع حاجزا مخيفا بينهما .. لم يناقش الأمر من قبل، لكن وداد اقتربت منه بلهفة .. ألصقت جسدها بذراعه .. وقالت له .. همست بحب .. بعشق .. بأمومة :

ـ « كل لك لقمة يا طاهر .. » حاول أن يرفض ، لكنها أغرته « ده سخن .. يشبعك ! .. » و .. اشتقاق اليها .. الى لقاء الحب الذى كان .. وتبادلا ابتسامة ، لقد ابتسما لأول مرة ضبطا نفسيهما وهما يبتسمان ، ارتبكا لحظة خاطفة ، اتسعت ابتسامتهما ، واحسا دون حديث بينهما ، انهما قد حزنا فى الأيام الأخيرة بما يكفى .. واقتسما الرغيف الساخن .. وكانت أشهى لقمة يتذوقها كل منهما فى عمره كله ، و .. ازدادا حنينا الى لقاء .. وفى آخر الليل تقابلا فى الجناين .. والتصقا بعنف و .. أدركا أن خوفهما يتلاشى كلما اقتربا .. فالتصقا أكثر .

فى الغيطان ، كان الملازم مراد ، وجنوده ، منهمكين فى اعداد خنادقهم واستكمال ما تم منها بالتجهيزات اللازمة ، وتبادلوا السجائر والحراسة ، والغناء ، والضحكات ، وقال الرقيب مصطفى :

ـ « أخيرا ، اقتربنا ! .. »

وظل صامتا بعد ذلك وقتا طويلا ، لم يسأله الملازم مراد ، أو أحد الجنود ، مزيدا فى الحديث ، كانوا جميعا يعيشون بنفس الاحساس الذى يجتاح عقولهم وقلوبهم على الدوام ، كانوا يعرفون أن الخطوط المنتظمة خلفهم ، ومن حولهم ، على مساحة طويلة عريضة ، بطول وعرض وادى النيل ، تعنى انهم أخيرا ، يقتربون .. وكانت قناة السويس الآن على مسافة ثلاثة كيلو مترات .. فانهمكوا بنشاط مضاعف يجهزون خنادقهم ومرابض اسلحتهم .. وفاجأهم صوت زميلهم « محفوظ الفيومى » بنبراته الحادة ، العالية وهو ينشد فى ايقاع امتزج بنبضهم وانفاسهم وضربات فئوسهم ومجارفهم فى قلب الأرض لتعميق الخنادق :

« تذهب امم وتجىء أمم .. منذ عهد الذين كانوا قبلنا .. ومصر .. لا تتغير .. لا تزول

« حتى الأرباب الذين يستقرون فى اهراماتهم

« هم أيضا ذهبوا ..

« وكذلك الأشراف والمقربون .. دفنوا فى التراب ..

« أما هؤلاء الذين ابتنوا الديار .. وخلقوا مصر .. فانهم ظلوا مع النيل .. يواجهون الذئاب ..

« تذهب أمم وتجىء أمم .. والأجداد والأبناء يبتنون الديار ويمهدون لى أنا الطريق ..

علق الملازم مراد :

ــ « هذه هى حكمة التاريخ لكنهم لا يفهمون .. أتعــرفون أيها الأصدقاء ماذا قال الاغريق عن مصر عندما بهرتهم حضارتنا؟

أسرع المقاتل محمود القناوى يقول بلهجته الصعيدية التى لم تغيرها دراسة أربع سنوات فى الجامعة !

ــ « قالوا ان مصر هبة النيل !.. »

فقال الملازم مراد مداعبا :

ــ لا يادارس الجغرافيا .. أننى لا أقصد ما قاله هيردوت، لكننى سأذكر لك ما قاله الفيلسوف الرياضى العظيم « طاليس » أحد الحكماء السبعة الذين نزلوا بمصر حوالى سنة ٦٠٠ قبــل الميلاد ، وأدهشته مصر ونيلها .. فقال « ان مصر قاطبة تكونت من طمى النيل .. وقد ترك ذلك آثارا بارزة فى حضارة المصريين الذين يعيشون مع النيل .. ذلك المجرى السماوى المقدس فى ديارهم .. هذا ما رأيته بعينى فى مدينة طيبة .. وأدركت لماذا تشتمل مصر على عجائب أكثر من أى بلد آخر .. »

وازداد حب الرقيب مصطفى لملازمه الذى ذكره بابنه عاطف وأحاديثه عن الكيمياء التى صنع بها المصريون مادة التحنيط العجيبة ووعده أن يفعل مثلهم ، وملأه الزهو والفخار ، فهتف :

ــ « يا بختك بولادك يا مصر .. ! »

**

وقف طاهر عند حافة البئر العميقة ، حاول أن يتصور حجم القنبلة التى مزقت احشاء الفدان هكذا ، حاول أن يخمن هــل هى ألف رطل أم الفان .. وأخذ يتأمل مياه البئر المخلوطة بالتراب وبقايا دماء وأشلاء البقر .. وقطــع من القمر المنكسر وسط السحاب ، وخطر له شىء مخيف .. قال :

ـ أول مرة أرى الحــرب !..

وانشغل بمحاولة ترتيب أفكاره عن المأساة التى حلت بأولاد كنانة وتذكر ما قرأه فى كتب التاريخ التى اســتعارها من زميلته الحبيبة عزيزة :

ـ « .. كان ابناء الشمس محاصرين دائما بالغزاة الطامعين فى أرض مصر الخصبة ، لكن الشعب كان سرعان ما يتـــوحد مع واحد من أبنائه ، ويهبه الشجاعة والحكمة ويدفعه للميدان .. يجعله قائدا ، ومعه يخوض الحروب أعواما ليشتت الغزاة ويبعد أذاهم عن الديار .. » وقال لنفسه : ما أحوجنا اليوم الى **فهم هذا الدرس ! .. »**

أفاق طاهر على صوت الملازم مراد ينادى .. استدار اليه، رآه غير بعيد منه ، كان يقف مشدود القامة ، يكاد يطاول القمر. كان يستعرض جنوده ، واخذ طاهر يرقب المشهد ، كـان الملازم ينادى الاسماء ، ببطء وثقة : مستعينا بالليل على اخفاء مشاعره التى اعتاد أن يحس بثقلها كلما وقف يتمم على جنوده .. كـانت أسماء كثيرة أخرى ترد على خاطره ، بعضها رحل الى الســماء فى مواقع سابقة، فى سيناء وفى غيطان مصر ، وبعضها نقل الى وحدات أو مواقع أخرى و .. ارتفع صوته وهو ينادى :

ـ مقاتل مصطفى القطورى ؟

ـ تمـــام يا فنــدم .

ـ . . . .

ـ . . . .

ـ مقاتل سمير مرقص السكندرى ؟

ـ تمـــام يا فنــدم .

ـ . . . .

ـ . . . .

ـ مقاتل محمود القنـاوى ؟
ـ تمـــام يا فنـدم .
ـ . . . .
ـ . . . .
ـ مقاتل سالم المنصورى ؟
ـ تمـــام يا فنـدم .
ـ . . . .
ـ . . . .
ـ مقاتل أحمد الشعرانى ؟
ـ أفنـــدم .
ـ . . . .
ـ . . . .
ـ مقاتل عبد العظيم البحيرى ؟
ـ أفنـــدم .
ـ . . . .
ـ . . . .
ـ مقاتل السيد البنهاوى ؟
ـ أفنـــدم .
ـ . . . .
ـ . . . .
ـ مقاتل محفوظ الفيومى ؟
ـ موجود يا فندم ..
ـ . . . .
ـ . . . .
ـ . . . .

ظل الملازم مراد ينادى الأسماء وظل طاهر يتابعه على مسافة عشرين مترا ، لفتت الأسماء والألقاب اهتمامه. ان كل اسم ينتهى

باسم محافظة أو مركز معروف فى جغرافية مصر .. القناوى. الاسوانى ، المنياوى ، الأسيوطى ، الرشيدى ، الدمياطى ....

هتف صوت بداخله :

ـ « ان مصر كلها قد توحدت فى أولاد كنانة .. »

و .. خطرت له أمنية .. ان تكون عزيزة هنـا ، تشـهد معه الميلاد الذى يدرك بكل وجدانه .. ووعيه ، وأحلامه ، انه سيحدث.. وانه سيكون ميلادا عملاقا، مخيفا : اذا زمجر فالويل لمن يقف فى طريقه .. أحس بأنين و .. وشوشات الأرض والزرع والجناين والتراب والليل والخيام والخنادق والهدد والنجوم .. أحس بالاف الأشياء تسرى فى دمائه ، فى أنفاسه ، فى خـلايا جسمه وتنضجه .. تطيل هامته .. تثبت قدميه فى الأرض ، ترفع راسه للسماء ، قال :

ـ « فدان أبى صار نصفه بئرا عميقة ، وزرعه احتـرق ، لكن هذا الخندق الذى نبت فى رأس الفدان ، سيكون درعا يصد أخطار المعلوم والمجهول عن بقية المشوار .. »

فى غبش الفجر ، عاد طاهر مرهقا .. واختلطت أحلامه بمشاكله فثقل الحمل علي قلبه وعقله .. نظـر اليه أبوه عطية الصعيدى وهو يلصق ظهره المتعب الى الجدار .. وقال بصوت ممزق :

ـ « معك حق يا طاهر .. »

ثم عاد الى صمته وقتا طويلا ، قبل أن يغمغم بحكاية العمر الطويل مع الشقاء والجرى هنا وهناك وراء لقمة العيش ..

ـ « كان جدك الله يرحمه مراكبى .. يجذب حبال المراكب من الأقصر الى رشـــيد .. كان يفهم فى حاجات كثير .. فى الاسكندرية اتعرف على واحد خواجه فى كار المراكب وفهم اللغز كله .. ورجع بعدما لف الدنيا فى مركب الخواجه .. لكن رجع فارس بصحيح .. كان شرب الصنعة ، وبقى اسمه المهنـــدس طاهر الصعيدى ، وحط المكن فى المراكب .. ودارت بالبخـــار .. كل ريس مراكب ضرب لجدك تعظيم سلام ، وبعد كام سنة، ساب النيل والمراكب ، واشتغل مهندس كبير فى السويس واتجوز من الاســـماعيلية ومات قبل ما اتولد .. ملحقتش اتعلم منه الصنعة ، ما قاليش على اللغز .. لقيت نفسى يتيم ، امى اتجوزت بحار اخدها استراليا .. أو الهند مش فاكر ، سابتنى عند أبوها. كان جناينى فى معسكر الانجليز .. وفى مرة ظبطوه بيخبى فدائى فى الجناين .. حرقوهم هما الاثنين فى فرن التعذيب بمعســكر فايد و .. لقيت نفسى هنا فى أولاد كنانة وكان الفدان اللى حيلتى هو وانت ر .. اخوك « مراد » اللى راح فى ممر متلا .. »

***

انتشر الخبر بين الجميع ، مضغوه مع العيش الصـــابح الذى خبزته وداد وأبله ليلى وسميرة والنسوان والبنات ، وفكروا ثم تكلموا بحذر شديد :

قال الحاج نور الدين :

ـ « هم اولادنا .. ومعهم نامن شر الغدر .. »

وهز حسني الترزى راسه ، وهو نائم على ظهره .. يستند دماغه على لفة الصوف التى اشتراها أمس من الزقازيق ، وقال:

ـ « لكن وجودهم هنا .. فيه خطر علينا ! .. »

صرخ فيه الحاج نور الدين :

ـ « **فز .. انعدل .. واوزن كلامك يا ولد .. ولا تـكن كافراً .. »**

لكن العيون كانت قداتجهت الى حسنى الترزى ، وتباطات الأفواه فى مضـغ الطعام ، وامتلأت الرءوس بصـور ما حدث فى أيام الغارة .. وتساءل الحاج متولى .. صاحب مكنة الطحين. بخوف ظاهر :

ـ « خطر .. ! ازاى ؟! » فوجىء حسنى الترزى بالسؤال، بحلق بعينيه فى وجوههم .. كانوا مفزوعين .. خجل من الكلام ، كان يريد أن يقول انه لم يقصد بالخطر .. الخطر .. وانما هـو كان لحظتها يفكر فى البنت سميرة .. حبيبته التى سيتزوجها.. حتى لورفض ابوها مرسى المنفلوطى .. وانه يغار عليها من الهواء الطاير ومن عيون الجنود ، لكنه عندما حوصر بنظرات أولاد كنانة الذين يريدون منه أن يفسر ما يقصده بالخطـر من وجود الجنود فى بلدتهم وغيطانهم ، تحدث متلجلجا :

ـ **« أقصد انهم سيجرون العدو الى هنا دائما .. و .. »**

أسرع طاهر يسكته ، قال له بنفاد صبر :

ـ « اننا فى قلب الحرب فعلا .. بيوتنا انهدمت .. بعضنا مات .. أو جرح . اتفهم ؟! .. »

وادعى حسنى الترزي انه يفهم فعلا.. ثم هرب بنظراته الى عينى البنت سميرة الحلوة القمورة ، التى سيخوض بسببها بحار الظلمات ، ويتعارك مع أبيها اذا رفض زواجهما ، وتعجل وصـول مرسى المنفلوطى الذي طالت غيبته مع زوجته عطيات فى مصر ..

و .. لكنه بوغت ، كما بوغت الجميع ، عندما قالت البنت سميرة، وبراءة الأطفال فى صوتها وعينيها :

ــ « عم عطية الصعيدى .. حيزرع ايه .. وياكل منين ؟!»

طــال صــمت الجميع .. طالت دهشــتهم .. غرقوا فى مشاكلهم و .. ولكن البنت وداد أسرعت تقول :

ــ « لو ردم البير حيلاقى أرض تكفيه .. »

وصــــاح طاهر :

ــ كلامك عين العقل ياوداد .. »

ولمعت عيناه فرحا بها ، ازداد شوقا لها ، تمنى لو أخذها فى احضانه ، لكنه خجل من أفكاره ، ولم يلحظ أن أبلة ليلى ترقبه ، حيث جلست مع أخوتها الصغار بجوار ابيها الحاج نور الدين . كانت تحاول أن تعرف لماذا ظلت هذه السنوات بلا حبيب يؤنس قلبها الذى يدق الآن فى عطش جارف لكلمة من رجل يحبهــا بقدر ما ستحبه ، لكن احلامها توقفت فى لحظة ، عنــدما سمعت صوت أبيها ، كما سمعه كل أولاد كنانة ، وهو يقول .. بعزم الأنصار على اكرام المهاجرين فى ذلك الزمن البعيد :

ــ « عندى خمس فدادين يا عطية .. نزرعها سوا .. نزرعها كلنا . المصلحة مصلحتنا جميعا .. »

وغمرت البهجة وجوه الجميع ، لكن ببطء ، بحذر .. بخوف .. بتردد .. كأنما الأحلام لايمكن أن تكون حقيقة فى لحظــات .. لكن الحاج نور الدين عاد يهمس بصوت عميق كأنما ينبع من أصوات .. من امنيات تتجسد فى حلم واحد يتخلق فى وجدانهم . فى اعمق اعماقهم ، ثم تحــددت معــالمه ، بانت كلمــاته ، جاءتهم ممزوجة بحفيف وهمس ووشوشات وضجيج ، كأنها من السماء ،

كأنها من الأرض ، لكنه كان صوتا واضحا وضـوح اليقين بوجود الله ، وكانت كلماته معبقة برائحة تراب رهدد البيوت ودماء الجروح وأنفاس الشهداء ، كان الصوت يقول :

ـ « البيوت .. سنبنيها .. وندهن الجدران ونزخرفها .. »

وسألت البنت وداد فجـــأة :

ـ « وأبويا على الطـواب ؟! »

وملأها الخوف على عينى أبيها و .. لكن الحـاج نور الدين طمـــأنها :

ـ سيعود سليما معافى باذن الله تعالى .. فاصبرى يا وداد

وقال عطية الصعيدى مداعبا ، وقد غمرته أفراح تصورها وهو يشارك الحاج نور الدين فى زراعة الخمس فدادين بالفواكه .. قـــال :

ـ « يا بنت .. أبوك بسبع أرواح .. بكره يرجع .. ويبنى معـــانا أولاد كنــانة » .

وحلقت أفئدة أولاد كنانة فى حلم جميل ، لكن طاهر قال لهم :

ـ «على رأى المثل .. راحت السكرة .. وجاءت الفكرة .. »

وصمت لحظة ، نظروا جميعا اليه ، فأضاف :

ـ « والآن .. يا أولاد كنانة .. كيف نبنى بلدنا .. ؟! »

و .. ظلوا صامتين ، فاجأهم السؤال ، كمن كانوا يجهلون المتاعب التى اختاروها عندما رفضوا الهجرة .. وتذكروا جميعا بشاعة ما حدث لهم ، أحسوا أنهم الآن فعلا فى العراء ، انهم فى كارثة .. انهم خرجوا جرحى من مذبحة ، من دمار باغتهم ، أن اعزاء

عليهم ماتوا .. ان مقبرة واســـعة فتحت وابتلعت واغلقت ، واجتــاحتهم أحقــاد ضارية ، تمنوا لو تمــكنوا من رقبة عدوهم ليكسروها ، ليحطموا رأسه يدوسون عليها بالأقدام ، ليرى انهم ما زالوا أقوياء .. وانهم سيبنون أولاد كنانة ، ويزخرفون دورهم بالدم والعرق .. كما قال طاهر أفندى وهو يفيض فى حديثه اليهم عن ضرورة التخلص من الحزن واليأس ليبدأوا العمل فورا. لكن انفجارا مفاجئا أسكته .. أسكتهم .. وفجر آلاف الأسئلة والمخاوف فى قلوبهم ، وتساءل الحاج نور الدين :

ـ « اى خطر ينتظرنا على الطريق .. »

ثم .. ما لبثوا أن هرولوا فى اتجاه الانفجار ..

الفصل الثالث

الوثيقة

انقشع الغبار والدخان الأسود .. حمله الهواء الى بعيد .. وتمكن « أولاد كنانة » والجنود من اخماد الحريق الذى اشتعل فى أكوام الأبواب والنوافذ والأسقف التى كانوا قد جمعوها من وسط الأنقاض .. وعندئذ عرفوا أن قنبلة موقوتة كانت لاتزال هناك ، و .. اكتشفوا أيضا أن الفجر قد لاح ، وأنهم كانوا قد ناموا فى غيبوبة طويلة ..

انفجرت البنت سميرة فى بكاء عصبى ، عندما رأت أباها مرسى العرضحالجى وزوجته عطيات يهبطان من احدى عربات الأجرة .. صدم مرسى ، وزعقت زوجته ، وتعلقت سميرة بعنق أبيها ، فأحس بانتفاض جسدها و .. بعد دقيقة ، أو دقيقتين ، كان الرجل يحاول أن يفهم ما يراه .. ما يسمعه ، ما حدث فى غيبته فى القاهرة و .. للحظة خاطفة اختلطت مشاعره .. ايشكر الله لأنه كان بعيدا عن البلدة وقت الغارة وكتبت له النجاة هو وزوجته ، أو .. يلوم نفسه لأنه كان بعيدا عن ابنته وداره وأهله وقت الكارثة ؟

مهما تكن المسألة ، فانه يعرف واجبه ، وما أن وصل الى دار وداد حتى فتح حقيبته الباهتة اللون وأخرج أوراقه وقلمه الكوبيا المبرى جيدا ، وجلس فى حوش الدار ، بين الرجال

والنساء والأطفال ، وأخذ يسطر عريضة ، أطول عريضة كتبها فى حياته ، نطق اسم الله بصوته العميق ، الذى علقت به الآن غصة مريرة ، وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

ــ « أما بعد :

فان أولاد كنانة .. هى بلد العجائب الخالدة منذ آلاف السنين ، وقلما تجد بلدة تضاهيها فى بهجتها ، ففى كل زاوية من زواياها كنت تجد المدهش العجيب ، فتاريخها الطويل جعلها صورة عريضة لنقوش التاريخ الذى مرت بنا أحداثه الجسام ، ومررنا به نحن فى رحلة العصور .. والكتب المحفوظة فى خزائن القلعة ودار الكتب تروى الحكاية التى يطول شرحها :

« ففى البدء ، خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه القمر ظلمة ، وروح الله ترف على وجه الماء ، وقال الله ليكن نورا ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهارا ، والظلمة دعاها ليلا وكان مساء وكان صباح .. »

« وذات يوم ، كان الجد العظيم ، يبحث عن أسرار الحياة، عن شىء عظيم يستحق أن يبذل فيه عرقه ودمه ، ويمزجه بأنفاسه وأشواقه ، وطال بحثه فى بحار الظلمات وفيافى الصحراء ، حتى قدر الله له ، أن يرى المجرى السماوى ، نهر النيل ، فغطس فى مياهه ، وتطهر من وعثاء الطريق ، وامتلأ تمائة وخرج محملا بالخصوبة والعطاء ، وطارد الوحوش واقتلع الغابات ، ولوى عنق الصعب ونحت من الصخر فأسا ومحراثا واستأنث الأبقار والأغنام واخضع كل الضوارى وبذر أول حبة قمح فى رحم

الأرض وحصد أول حفنة خير وطاول الارض والسماء وصار سيدا .. بنى البيوت على أشلاء الكهوف ، وتناسل أولادا وبناتا .. وصارت له قبيلة .. قبائل .. قرية .، قرى .. مدينة .. مدن .. صار له وطن أسماه بالهام الهى « أولاد كنانة » وأخذ يستقبل على أبوابه الحصينة وفود الأجانب الباحثين فى أسرار حكمته وشجاعته . . وجعل هيردوت ـ مثلا ـ يعود مبهورا من عجائب أولاد كنانة ولكنه ـ جدنا العظيم ـ أوصى أبنـــاءه الذين اختارهم لتسجيل يوميات أولاد كنانة ، بأن يصححوا الخطـأ البسيط الذى وقع فيه « هيردوت » دون قصد ، عندما قال: «ان مصر هبة النيل» ، وقال لهم يستحسـن أن تقولوا للقادمين من بعدنا ، أن ذلك صحيح، لكنه يكون أصح وأصدق لو أضفنا ايضا أن «أولاد كنانة» كان لهم دورهم ، وأن الصياغة الصحيحة للقول تكون : «انه منذ تواجد أولاد كنانة هنا ، ومنحوا الارض والنيل عرقهم ودماءهم وأنفاسهم وحكمتهم، فقد صار كل شىء، من أرض وجبال وأنهار هبة من أولاد كنانة .. وقال الجد العظيم ابنيه وأحفاده اذا تشكك أحد فى كلامكم ـ والدنيا عادة لا تخلو من ضعاف النفوس وهواة الأكاذيب، وعشاق الأوهام، والمتخفين من جبنهم وضعفهم فى جلود النمور ـ فقولوا لهم حكمتى وهى : أن أولاد كنانة قهروا الظلام ، والصحارى والجبال واســتأنسوا الضوارى ، ولووا عنق النيل وأجبروا أمواجه على التدفق الى حقولهم وترعهم ومصارفهم التى بلغ عددها فى عهدى ..٨٥ من قنوات الرى الكبرى ، منها ألفا ذراع صالحة للملاحة ، وأنها جميعا ، صارت شرايينى العظيمة التى يصل اليها النيل برغبتى أنا وانتم ، وقتما نريد نطلقه ، وقتما نشاء نوقفه ، ولا تنسوا أن تضيفوا بتواضع ان كميات الدم والعرق التى قدمناها فى رد الغزاة عن ديارنا فاقت كل مياه النيل و.. صمت الجد العظيم، لأنه أراد أن يرحل الى الســماء ، ليعطى الفرصة لبنيه وحفدته ليقرءوا

بدورهم ، وقد مكثوا يتشاورون في الأمر سنوات ودهورا ثم تحركت جماعة منهم لتزيد من عدد الترع والقنوات في ربوع الوادى، واتجهت جماعة أخرى الى السواحل والشطئان وعمرتها، وأنشأت مدن الاسكندرية ودمياط ورشيد وبلطيم وبورسعيد والاسماعيلية والسويس في عشرات السنين .. في مئات السنين .. وجاءت جماعة منهم الى الصحراء واخترقتها وملكت الكنوز ، وقامت جماعة أخرى بقهر الصخور والرمال وأوصلت البحر الأحمر بالبحر الأبيض .. وكل هذه الأعمال التى تبهر الدنيا الآن، قام بها آدميون من نسل الجد العظيم، الذى أنشأ «أولاد كنانة» سنة واحد لوجود آدم على الأرض ، وكانوا – أبناء وأحفادا – يعملون كالنحل ، فالشباب منهم يقلبون الأرض بالمعاول ويملأون المقاطف التي يحملها النساء والأطفال على رءوسهم فوق آلاف الجسور الممتدة عبر القنوات والأنهار والبحار والصحارى والغابات ، وكانوا – اذا حل بهم التعب – لا يتوقفون وانما كانوا يتساندون ، بتشبيك أذرعهم خلف ظهورهم ويواصلون صعود الجسور العالية في أشكال مقوسة ، ثم تستقيم ظهورهم عند القمة وعندئذ تسقط أحمالهم في المكان المحدد على الأرض ، وكان الآلاف من هؤلاء الأبناء والأحفاد يموتون أثناء الاشتغال بهذه الأعمال الضخمة .. لكن الموجات كانت تتوالى ، وهم غالبا عراة الأجسام، وهم عادة ينامون على الأرض في أماكن العمل حيث تغطى الأرض بكتل بشرية من أحفاد « أولاد كنانة » .

وأضاف مرسى العرضحالجى ، ما قاله الحاج نور الدين :

– « وفي الوقت الذى احتمل فيه أولاد كنانة مشقة العمل وشدة الحرارة والبرودة ، وانشغلوا بانجاز المهمة المقدسة التى ندبتهم السماء لها، وهى الخروج بالبشرية من بحار الظلمات .. كان هناك بعض من ترفهوا ، واستطاعوا أن يجعلوا من أنفسهم مشايخ

وخفراء وركبوا الرهوانات والعربات وأعلنوا انهم وحدهم « الأسياد » واحتدم بينهم الصراع واستعان بعضهم بالسياط والعملاء والسجون ، وخنعت قلة منهم للأجانب والغزاة ولكن « أولاد كنانة » كانوا دائما يختارون من بينهم واحدا يمنحونه كل شجاعتهم ومعاولهم ويخرجون وراءه وأمامه وعلى اجنابه لتطهير بقعة من ديارهم .. وكانوا فى كل مرة ينزفون الدم والروح ويعودون لاستكمال البناء .. واستمروا على هذه الحال ، حتى وقعت غارة همجية خلفت لنا الدمار ، وزرعت كل الطرقات والحارات والأزقة بالقنابل الموقوتة والألغام ، وقد قدر الله لأولاد كنانة جندا عظاما من حفدتهم ، راحوا يتقدمون الصفوف ، لكن نزع الألغام ، وتجهيز ما يلزم لأيام الشدة ، يأخذ بعض الوقت.

وطلب عطية الصعيدى ، من مرسى العرضحالجى أن يضيف:

– « ان أولاد كنانة سيصبرون حتى يغلبوا الصبر نفسه.. وأن طولة العمر تبلغ الأمل » .

وقال طاهر ، وهو يستلهم وجوه ونظرات الرجال والنسوة والأطفال وأكوام الهدد وبشاعة الدمار :

– « ويترتب على ذلك حقيقة واضحة وضوح ما حل بنا من دمار .. وهى أن كل ما تبقى على قيد الحياة فى أولاد كنانة ، يريد أن يتعيش من عمله ، وأن يعيد بناء داره واصلاح أرضه ، علما بأن الأهالى هنا لا يعارضون فى وجود نفر من الجند عندنا ، لأنهم منا ، ونحن منهم ، وسيكونون عونا لنا وحماية ، و .. انهم قدموا دماءهم ، وطعامهم ، وغطاءهم ، لأطفالنا ، ونسائنا عندما حلت بنا الكارثة ، وانهم ما زالوا ينزعون المتفجرات من فوق الطرقات ومن تحت التراب والأنقاض .. »

وختم مرسى العرضحالجى العريضة ، بخطه النسخ الجميل:

« والعزة لله ولأولاد كنانة »

* * *

.. كان الحاج نور الدين يســـــتعرض شريط الحياة التى عاشها مع أولاد كنانة ، مع كل كلمة يقرأها مرسى العرضحالجى. وهو يفرد العريضـــة أمامهم لمراجعتها قبل اعلانهـــا على رأس الاشـــــهاد .

لم يكن حاجا وقتها .. كان تلميذا صغيرا فى المعهد الدينى .. لا يذكر متى دخله .. لكنه يذكر اليوم الذى خرج فيه من رحابه ، كان ذلك يوم التاسع من أكتوبر سنة ١٩١٧ يوم نشرت صحف ذلك الزمان أن المندوب السامى « السير رجلند ونجت » قدم تبليغا من الحكومة الانجليزية للسلطان احمد فؤاد الذى تولى « السلطنة » فى نفس اليوم ، وجاء فى هذا « التبليغ » :

ـ « أحيط عظمتكم أنه لما كان نظام الوراثة على عرش السلطنة المصرية لم يوضع للآن ، وكنتم عظمتكم المتعين لوراثة العرش ، فان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبوأ هذا العرش السامى ، على أن يكون لورثتكم من بعدكم ، حسب النظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وعظمتكم .. »

يومها صرخ الطالب نور الدين ومعه صرخ مرسى المنفلوطى وفى نفس اللحظة صرخ مدرسهما بالمعهد وزملاؤهما فى الفصل ، والناس فى الشارع .. صرخوا غاضبين :

ـ « الشعب . أين الشعب ؟ »

يومها .. قال أستاذ المعهد :

ــ « بريطانيا ترشو السلطنة ، تمزق أحلام الشعب فى حصوله على الاستقلال بعد أن قدم من رجاله وأمواله وجماله وأبقاره وزراعته للجيوش الانجليزية فى الحرب .. »

وامتزجت الدماء فى الشارع ، عندما أعلن « جلالة الملك فؤاد الأول » اهداء بضعة ملايين من الجنيهات لخزينة الانجليز .. امتنانا لقيام جيش الامبراطورية بالدفاع عن مصر أثناء الحرب

وأطلق الانجليز بنادقهم فى الميدان ، وقتلوا الأستاذ ، وأحد الطلبة ، وأصابوا كثيرين ، وسجنوا الحاج نور الدين ومرسى المنفلوطى شهرين فى قشلاق العباسية .. وبعد أن عذبوهما قرروا فصلهما من التعليم الى الأبد ، فعادا جريحين الى أولاد كنانة ، وصار الحاج نور الدين تاجرا للغلال وملك خمسة فدادين فى أرض الجناين ، واحترف مرسى المنفلوطى كتابة العرائض ، فقد كتم أبوه ــ المنفلوطى ــ حزنه فى صدره حتى مات ، ومن بعده رحلت أمه ، وظل خاله فى القاهرة غاضبا منه لأنه تسبب فى الاضرار بمستقبله كموظف فى سنترال مصر العمومى يحلم بالترقى والربح من تجارة قطع الغيار ومخلفات الجيش الانجليزى. لكن مرسى لم يتخل عن أحلامه ، احترف كتابة شكاوى الأهالى ضد السلطنة ، كان يجد راحة عميقة فى كل كلمة يكتبها منددا بالمظالم ، مطالبا برفع الغبن عن أولاد كنانة ، وتدريجيا صارت كتابة العرائض مصدر رزق ، حمل اليه الفلاحون والعمال والموظفون ، أجورا ، بعض القمح والأرز ، وقليلا من النقود وتزوج ، ومنح زوجته كل أحلامه لتنجب أولادا يحققونها . لكن الولد الأول مات والثانى قتله الانجليز ، والثالث اعتقل فى القلعة ولم يعد أبدا ، فاحتسبه شهيدا ، والرابع قتله الاسرائيليون يوم هاجموا داره فى أولاد كنانة وقتلوا زوجته ، وكانت سميرة تحبو

وكتبت لها النجاة بأعجوبة ، كانت تلهو فى عشة الفراخ ولم يرها الانجليز الذين جاءوا وأخذوه بعد أن ثبت لهم تعاونه مع الفدائيين فى منطقة القناة .

***

قالت له ابنته سميرة ، بدلال وعناد :

ـ « رجلى على رجلك اذا سافرت مرة ثانية .. »

فاحتواها مرسى العرضحالجى بذراعيه ، وملأت الدموع عينيه .. وظل صامتا يجتر أحلامه .. وقالت زوجة أبيها عطيات:

ـ « اشتريت لك جلبابا جديدا يا سميرة ! .. »

.. نظرت اليها سميرة ، وظلت ملتصقة بصدر أبيها ، وفكرت فى أن عطيات تحبها فعلا ، قالت فى سرها انها ستحبها اذا ساعدتها فى اقناع أبيها ليوافق على زواجها من الولد حسنى الترزى ..

***

قال الحاج نور الدين :

ـ « ليلى تسافر ومعها العريضة . »

فقال عطيه الصعيدى :

ـ « يسافر معها ابنى طاهر ».

قال الولد حسنى فجأة :

ـ « كلكم حتسافروا .. امال مين حيبقى معانا البلد .. ويصلح الأرض ؟ .. »

فوجىء طاهر ، نظر حوله مرتبكا ، تلاقت نظـراته بعيني ليلى ، بعيني وداد ، تبادلوا ابتسامة صامتة ، قالت البنت وداد :

ـ « احنا يا ولد يا ترزى .. حنبنى البلد .. نردم البرك .. نصلح الأرض .. حنفضل كلنا هنا .. »

ولسعه مرسى العرضحالجى بلسـانه :

ـ « اعقل يا ولد يا حسنى .. وفكر قبل أن تتكلم ! .. »

أحست البنت سميرة أن لســـان الولد حسنى سيؤدى بأحلامها فى ستين داهية .. تمنت لو قامت اليه ، وشدت أذنيه وعضته بأسنانها ليحاسب على كلامه ويكسب حب أبيها ..

قالت وداد ، وهى تعد لهم الشـــاى الذى حمله الرقيب مصطفى القطورى :

ـ « نحط ايدينا مع بعض .. وهيلاهوب .. نبنى البلد .. »

نظر اليها عطية الصعيدى باكبار ، ورآها بالف رجل ، كان فى مثل سنها يعمل ليل نهار دون أن يكل أو يتعب ، منـذ كبر وهو يريد أن يعرف اللغز الذى مات أبوه دون أن يبوح له به ، فشل فى العمل على ظهر المراكب ، وجد نفسه شـيالا ، طـرده ريس الشيالين عندما تجرأ وأمسك بخناق القبطان الانجليزى ، حاول الدفاع عن نفســه .. أراد أن يقول ان القبطان هو الذى ركله بقدمه فثار ولم يتمالك نفسه ، لكنه طرد ، عاد الى أولاد كنانة فى العشرين من عمره ، ممصوصا ، نحيلا ، حمل الفأس وعمـل فى غيطان الجيران ، وجمع القروش وتزوج وأنجب مراد ، الـذى ذهب فى ممر متلا ، وطاهر الذى بقى له ، بعد أن ذهبت الزوجة هى أيضا ، احتوى ابنه طاهر بعينه ، وتمنى لو حصنه بتعويذة الدهر

ضد الموت والخطر ، وجد نفسه يربت على ظهره بحب جارف يجتاحه من قدميه لشعر رأسه ، قال طاهر موضحا الأمر لهم :

ـ « يجب ان نعود انفسنا من الآن ، ان الاجراءات ستطول، وأن الموظفين فى الحكومة لم يكونوا هنا ولن يعيشوا ما عشناه فى الغارة الهمجية ، وان كلا منهم وراءه مشاكله التى يرى أنها اهم من أى شىء فى الدنيا .. فلنتزود بكثير من الصبر .. »

اعترض الولد حسنى الترزى :

ـ « **هو احنا يعنى على مزاج موظفين الحكومة ..** »

أسرع الحاج نور الدين يقول لهم :

ـ « **كل شىء بالعقـــل والدين يا أولاد كنـــانة .. فـــلا تتهـــوروا ..** »

واخذ مرسى العرضحالجى يشرح لهم عقلية الادارة وموظفى الحكومة منذ جلب الخديوى اسماعيل اصحابه الخواجات وجعلهم يركبون مكاتب الحكومة ويحفظون كل شىء فى ملفات عجيبة ما زالت طلسما حتى اليوم ! ..

وروى لهم طاهر ما عرفه من التاريخ فى مدرجات الكلية ، وانهى حديثه بأن « اللخبطة » والارتباك فى الدواوين ترجع الى عصر الفراعنة ..

صاح حسنى الترزى ، وهو يرقب وجه مرسى العرضحالجى محاذرا الا يغضبه :

ـ « **يبقى نهـــاجر اسهل ..** »

هبت وداد فى وجهه ، خبطت صدره براحتيها فى غضب ولطمته بلســـــانها :

— « آه يا عيـل ! .. »

وتضاءلت البنت سميرة تحت ابط والدها وتمنت لو تبكى حظها العاثر مع الولد مقصـــوف الرقبة حسنى الترزى الأعمى اللسان .. لكن ليلى سألت :

— نهاجر الى أين ؟!. ان كل مكان فيه ما يكفيه وزيادة!..

قال الرقيب مصطفى القطورى :

— « أحكى لكم .. بلدنا ميت الشيخ اتحرقت من كام سنة .. انحرقت كلها .. ماس كهرباء، غضب الله، شرارة من فرن فى ساعة الخبيز ، اهمال مؤكد ، حرق البيوت والناس والمواشى ومع ذلك .. سافرت من شهر فى أجازة .. وبنيت معاهم أول جدار .. وعرفت منهم معنى الصبر وطول البال »

***

لكزت البنت وداد ، طاهر أفندى ، فى صدره ، بحنية ، بمودة .. باشتياق لقاء فى أرض الجنائن .. وأعطته كوب شاى دافىء وجلست بجواره .. تشتهيه .. سألته :

— « ســاكت ليـه ؟! .. »

انتبه لها ، امتزج صوتها بصوت عزيزة مختار، التى قالت له ذات مرة :

— « الصمت أقسى أنواع الموت .. ومن هنا كانت حـكمة ارسطو : تكلم لكى أراك ! .. »

يومها ضحكت ، وهى تعطيه كتاب «قادة الفكر لطه حسين» واضــافت :

— « المناقشة نصف المعـرفة » .

داعبها طاهر :

ـ « بنت مثالية حقا .. دماغك نضيف » ..

شكرته وداد ، وقالت :

ـ « دا من ذوقك ياسى طاهر .. »

لمست ذراعه تعمدت تكرار ذلك .. ثم سألته :

ـ « نهاجر ؟! .. »

كانت تهمس بالكلمة ، وقد داخلها الخوف من المجهول ، وأفزعها القلق على عينى أبيها « على الطواب » ، لكن طاهر ربت على كتفها ، وضع راحته بكل أشواقه على ثوبها الدمور المشقوق ، المعفر ، المبقع بالدم والعرق واجتاحته سنى عمره العشرين .. لهوه .. مرحه مع الصبية فى حوارى وأزقة وترع ومصارف وغيطان واشجار ونخيل وجناين وأجران ومخازن وسطوح وبيوت أولاد كنانة .. اللقاء الأول .. القبلة الأولى .. الالتصاق الأول .. حبات العرق والنوم بين أشجار الجناين و .. لهاثه وأحلامه فى أحضان « وداد » .. قال :

ـ « لا .. نفضل هنا .. مهما طالت الاجراءات .. مهما ظهرت الغام .. مهما تهدمت جدران .. مهما تعبنا .. نتحمل .. ونبنى .. »

***

قالت أبله ليلى ، وهى تحاول أن تحصى عدد الذين تبقوا أحياء من بين تلاميذتها الصغار ..

ـ تكلمنا كثيرا .. فمتى نبدأ .. وكيف ؟! ..

طال صمت الجميع ، فاجأتهم ليلى بالسؤال ، فتحت أمامهم أبوابا كثيرة على المجهول ، كان الواحد منهم يهدم جدارا فى داره ليوسع الغرف أو يزيد من ارتفاعها فوق الأرض ، أو يوصل بين الغرف بأبواب جديدة .. أو يفتح نافذة أكبر . لكن : أن يبنى الجميع فى وقت واحـد بيوتهم بما فيها من حجـرات وأفران وزرائب وأبواب وسطوح .. وقش وحطب وزرع وأكل وشرب . ومصاطب وأجران ، فذلك ما لم يحدث لهم من قبل .. وبدت المسألة شديدة الغرابة عليهم ، جديدة وحاول خيالهم تصـور الحكاية بكل الجزئيات والتفاصيل ، من مئذنة الجامع التى انهدم نصفها الى غرف المعاش وعشش البط والفراخ فوق السطوح ..

قال حسنى الترزى بعد تردد طويل :

ـ « عندى رأى يا جماعة ! .. »

فهب فيه مرسى العرضحالجى مؤنبا :

ـ « أفسدت ثيابنا بمقصك الصدىء زمنا طويلا ، فهـل تسعى لافساد عقولنا يا ولد .. »

فزع حسنى الترزى ، وفزعت معه فى نفس اللحظة البنت سميرة ، لكنهما وجدا أباها يضحك ، فعرفا أنه يمازح حسنى .. فضحكت، وقهقه الولد حسنى ، باغتتهم ضحكته التى خرجت من قلبه ، وقهقه معه الصغار و .. تدريجيا ، وببطء شديد ، لايحسه الا من تعلق بحبل وتم جذبه بصعوبة .. بمعجزة .. من الغرق، من الموت ، تبسمت شفاههم ، وجدوا أنه بالامكان أن يضحكوا من قلوبهم دون أن تمنعهم الأحزان التى تحلق فوق رؤوسهم ، وتندس فى أعماقهم كلما أدركوا أن دمارا حل بهم . فاجأتهم البنت سميرة بقولها الى الولد حسنى :

ـ « مكنتك سـليمة .. ؟! .. »

ـ « أهذا معقول يا جماعة ؟! » .

لكن الحاج نور الدين حاصره بصوته العميق .. قائلا :

ـ « لا تيأس يا ولد من رحمة الله وحكمة العقل .. »

وقال طاهر موضحا فكرته :

ـ « وما الغريب فى ذلك يا جماعة .. ان بالمعاهد والمدارس والجامعات آلاف الشبان الذين حملوا المعاول والمجارف وعملوا فى فرق العمل فى كل مكان .. لأنهم مثلنا .. مننا .. »

فقال حسنى الترزى ساخرا :

ـ دول هيبيز ومظاهرات .. وبس ياعم طاهر !..

كتم طاهر ضيقه وانفعاله وقال :

ـ « ان العدد الذى تظاهر ، ثبت أنه معذور .. فالانتظار يفقد البعض اعصابه .. كذلك اذا قصـــد أحدكم ما نراه فى الجرايد من صور الرفاهية والشـــعور الطويلة والثياب الملونة وخلافه ، فذلك أمر لا يخيف .. ان الجميع بخير .. فالحكمة اليوم فى العقول التى تنضج فى رحاب العلم وتتطهر بعرق العمل .. والبنى آدم عموما ليس بشعره الطويل أو صياحه وضجيجه .. الانسان دماغ تفكر وتفهم .. وسترون صدق ذلك بأعينكم .. بشرط أن نبدأ نحن .. ونضرب ضربة البداية هنا .. ».

علق الولد حسنى الترزى ، وهو يغرس ابرته فى القماش، ويشعل لنفسه سيجارة .. ويطلق الدخان من أنفه المدبب :

ـ « يا عم طاهر .. دا كلام جرانين .. »

لسعه مرسى العرضحالجى بعصاته ، وقال :

فرح الحاج نور الدين بابنته ، تذكر انه لم يســمعها تتكلم من قبل ، لام نفسه لأنه كان فى الأيام الخوالى يكتفى بالـــكلام وحده .. كان يروى لها ولزوجته المرحومة ذكرياته عن المظاهرات والســـجون والملك والفدائيين .. ولم يكن يـدرى ان عقـل ابنته ليلى ينمو .. يتبلور .. وأنه قد صار لها رأى تقوله .. ربت على ظهرها وأحس بالعزاء . وانتبه الى أن طاهر كان منهمكا فى شرح الحكاية بالتفصيل للجميع ، سمعه يقول :

ـ « وخلاصة الكلام يا أولاد كنانة ، هل نحن أقل من أجدادنا وآبائنا وأمهاتنا .. لقد مرت شهور طويلة ونحن نتكلم ، ونتكل على اعانات جنود المواقع القريبة .. فانتبهوا .. اننا نأكل طعام الجنود .. نشرب شايهم .. ندخن سجائرهم .. نأخذ أغطيتهم ونقاسمهم أفرولاتهم .. فهل استطعمنا الكسل والاتكال ؟! .. انها بلدنا .. يا أولاد كنانة .. بيوتنا ومصيرنا كلنا .. فهـل نتقاعس ؟! » .

وطال الصمت .. ثم قالت ليـــلى ، وهى تزيح عن ذهنها متاعب الأيام والليالى والشهور التى مرت فى رتابة الجلوس فى حوش دار وداد ، والسفر والعودة ، والكلام والخطب والمواعظ والألغام التى تفاجئهم من حين لآخر فى أحد الأزقة أو احــدى الحارات ... قالت :

ـ أسافر غدا .. وأتعجل مساعدة المسئولين فى المحافظة

قال طاهر :

ـ « بعض زملائى فى الجامعة اقتنعوا بالمشروع .. ويرحبون بمشـــاركتنا .. ما رأيكم » ..

سأل حسنى الترزى وهو يخيط ثوبا جديدا :

قال : « زى الحديد !.. »
فقـالت :

– « تقدر تخيط لأود كنانة هدوم .. وتعمل لنا مراتب والحفة ومخدات وكسوة جديدة .. »

لكن حسنى غمز لها بعينيه فى زحمة الوجوه ، وقال :

– قلت لكم عندى رأى .. اسمعونى .. الحكومة ..

هتف عطيه الصـعيدى :

– « الحكومة ؟! .. »

وتوارد فى ذهن الجميع آلاف المعانى لكلمة الحكومة . . تذكروا العقبات التى تحدث عنها مرسى العرضحالجى ، وطابور الاجراءات الطويلة ، وتذكروا أنهم فى حاجة الى تعويضات كثيرة .. الغيطان ، المحصـول ، المواشى ، الدجاج والبط ، الطحين والثياب والمراتب والأموات والجرحى .. و .. وصاح فيهم مرسى العـــرضحالجى :

– « أنا كتبت العريضة .. فيها كل اللازم » .

وقال الحاج نور الدين وعيناه تجتازان ركام التاريخ :

– « قبل ثورة سنة ١٩١٩ بكام شهر ، لمت حكومة الملك فؤاد ثلاثة ملايين جنيه من الغلابة فى البلد لاعانة خزانة حكومة الانجليز فى لندن .. تصوروا ؟! .. »

وقالت ليلى :

– « الناس تدفع دم قلبها هذه الأيام .. لاننا نردم البرك والمستنقعات التى تركها الاحتلال فى سكة سفرنا الطويلة .. »

ـ « الامخاخ المخوخة مثل مخك المقفول، هى مشكلة المشاكل فى « أولاد كنانة » ..

***

فى الجامعة اقتنعت عزيزة برأى طاهر .. فهمت أفكاره وأحلامه .. وشاركت بجدية فى الحوار الساخن الذى ادارته بذكائها مع زملائها .. مع زميلاتها فى الكلية .. مع رائدهم أستاذ القسم الدكتور نعيم عطية الذى قال لهما :

ـ « ولم لا .. انها تجربة ساخنة ، فلنجعلها بوتقة تنصهر فيها افكارنا .. تتبلور .. تشتد وتزداد صلابة .. »

وقالت عزيزة ، وهى تعانق الأفق بنظراتها المحومة فى فناء الجامعة ومبانيها :

ـ سنقول لمن يستخف بفكرتنا أن بناء البيوت فى أولاد كنانة واصلاح غيطانها ومصانعها ومدارسها سيكون حلما نخلقه بارادتنا .. نخرجه من عقولنا وقلوبنا .. نزرعه بأيدينا ونرويه بعرقنا ودمنا لينبت .. ينمو .. يورق .. يصبح حقيقة تطاول عنان السماء .. ثم ضحكت وداعبت طاهر : الم يقل الشعراء .. اذا لم نجد الحب لخلقناه ! ..

***

قال له والده عطية الصعيدى بحذر العمر الطويل !

ـ « أخاف أن تكون الحكاية كلها الاعيب عيال يا ولد ! .. »

وقــال طــــاهر :

ـ « اتعرف يا ابى .. منذ سنوات طويلة وأنا أحلم بأن اتحدث معك صديقا لصديق .. رجلا لرجل .. أشكو لك متاعبى واحلامى فى القاهرة ، ولكن مشاغلك كانت كثيرة ، وكنت أخجل

من مصارحتك باشـــواقى وحبى للبنت عزيزة و .. لكزه عطية الصعيدى بابوته الحانية وقال :

ـ « كبرت يا ولد .. صرت رجلا .. فلم الخجل والكسوف من أبيـــك .. »

لفهما الصمت وقتا واختفت أكوام الهدد والتراب فى ظلام الليل .. وقال طاهر .. ظل يقول ويقول ونام عطية الصعيدى .. كان مرهقا متعبا .. أسند رأسه الى كتف ابنه طاهر وعـلا غطيطه باسترخاء لم يحسه من سنوات بعيدة .. وعندئذ قال له طاهر ، بصوت لم يخرج من وجدانه .. قال :

ـ « لى زميلة حـلوة وجميـلة ، تحمل معى احزانى .. تشاركنى احلامى تبحث لى عن عمل احل به مشاكلى ومشاكلك لنعيد بناء الدار ونردم البئر الذى صار بركة فى الفـدان .. و .. ولكنها ابنة مختار بك الأرناؤوطى وانت لن توافق و .. »

ومن بعيد .. من بعيد .. تردد صدى هدير بعض المدافع ، واهتزت الأرض تحته حيث كان قد اغفى دون أن يدرى .. وجد نفسه يفكر فى البنت وداد ، فتذكر أن يقول لها فى الصباح أنه سيأخذها معه ليزورا أباها « على الطواب » فى المستشفى ويطمئنا على عينيه ، ولكن دوى المدافع اخذ يتصاعد بعنف هذه المرة ، فامتزج دويها المفعم باللهب والدخان بنبضه ، بأنفاسه ، بغطيط أبيه ، برائحة أولاد كنانة وترابها وبقايا جدرانها وجذوع شجرها ونخيلها ، وسرى فى دمائه ، فى خلايا مخه وقلبه وازداد توحدا وتماسكا و .. قال لنفسه :

ـ « اذا بنينا أولاد كنانة من جديد ، فسنصل بصورة محققة الى صدق القضية التى طرحناها منذ البداية هنا ، وهى صمودنا رغم كمية التدمير التى أصبنا بها ، و .. »

انتفضت البنت سميرة ، وزعقت بفزع ، سال العرق غزيرا فوق جسمها ، دفنت وجهها فى صدر ابيها ، أخذت عطيات ووداد وأبله ليلى وغيرهن من النسوة يطيبن خاطرها .. يهدهدنها .. همست وداد بآية الكرسى سبع مرات فى أذنها .. فتح الجميع عيونهم وادركوا أن البنت سميرة « مخضوضة » ..

فقال احدهم :

ـ « انه كابوس لا يطاق ! .. »

وغير بعيد .. كان الحاج متولى صـــاحب مكنة الطحين مفزوعا ، يحاول اقناع زوجته بالهرب معه الى أى مكان بعيد .. بعيد .. عن أولاد كنانة .. لكن زوجته كان مخضوضة من الليل وصوت المدافع فظلت ملتصقة بالأرض ولم تقو حتى على النطـق باستغاثة تضطرب فى حلقها الجاف ! ..

الفصل الرابع

الغول

دبت الحركة فى مشارف «أولاد كنانة» عندما وصلت ثلاث عربات أخرى محملة بالجنود والطعام والمعدات ، اجتمع حولها الصغار مهللين ، وعلى وجوههم السمراء المغفرة آثار ما حدث .. لكنهم ما لبثوا أن صفوا أنفسهم فى طابور مقلدين الجنود، وساروا بجوارهم وهم يرددون بمرح ممزوج بجدية أعمارهم وأصواتهم الزاعقة : « شمال يمين » .. « واحد اثنين » .. شمال يمين »..

ابتسمت لهم وجوه الجنود. وندم الرقيب مصطفى القطورى لأنه نسى أن يشترى حلوى وملبس للصغار قبل حضوره فأعطى لهم بعض القروش ليشتروا ما يشاءون فازداد تهليلهم ، ثم صاح أحدهم فجأة :

ــ « لكن دكانة المنشار اتحرقت ! .. »

اغتم الرقيب مصطفى لحظة ، وهو يرى آثار الدمار مازالت بأولاد كنانة وتحيط به وبزملائه وبالصغار واندهش ولام أولاد كنانة فى سره ، لانسياقهم وراء التكاسل والاسترخاء كل هذه الأيام الطويلة .. لكنه أسرع يضاحك الصغار .. سألهم :

ــ « مين هو المنشار ياولاد ؟! »

قال أحدهم :

— « البقال اللى واكل البلد .. »

تمادى الرقيب مصطفى القطورى فى مداعبته للصغار ، سألهم لماذا يسمونه المنشار .. وتسابق الأولاد ،كل منهم يحكى ما سمعه من أبيه ، من أمه ، من أخيه من أخته عن البقال الحرامى ..

وتذكر الرقيب مصطفى بقالا مماثلا فى قريته «ميت الشيخ» ولكن التفاصيل هربت منه فجأة عندما تركه الأولاد فى تهليل وصياح وهم ينطلقون على سكة المصرف الكبير ، ويهتفون :
— « بوز القرد أهه .. »

توقف عبد الودود مذهولا ، نظر بعينيه العمشاوين الى القرية ، صدمته الخرائب ، ازداد اصفرار وجهه، انفتح فمه الخالى من الأسنان ، ظل يرقب المشهد المروع ، ظن الحظات انه ضل الطريق ، وان هذه ليست « أولاد كنانة » ، أو انه فى حلم .. كابوس ، لكن الصغار هم نفس الشياطين الذين يسلخونه بألسنتهم وهم يشترون منه العسلية والملبس بكيزان الذرة التى يشجعهم على سرقتها من وراء امهاتهم ، و .. المصرف هو نفس المصرف الذى كاد يغرق فيه هو وحماره عندما قلبه حسنى الترزى فيه فى موسم الحصاد الماضى عندما — هدده بالحجز على دكانته لتأخره فى سداد سلفة اخذها منه ليشترى بضاعة ، انه لا يحلم اذن ، وها هى البنت وداد ، بوجهها المليح ، وجسدها الذى طالما اشتهاه ، فكان يغدق عليها مما فى دكانته ، حفنة كرملة ، علبة حلاوة طحينية ، وكانت هى تضحك من كرمه المبالغ فيه ، وكان يتخابث ويفاتحها فى الأمر من جديد :

— « عاوزك تدلكى ظهرى يا وداد .. أنا زى أبوكى !.. »

وكانت وداد تضربه فى صدره بيدها ، وتضحك ببال رائق وتقول له من قلبها :

ـ « ربنا يهد حيلك يا منشار .. ويريح البلد منك ! ..»

كانت وداد تعرف، كما يعرف الجميع، أن عبد الودود البقال، يسلف النقود بالفايظ لمن يريد ، وان الجنيه يرجع له جنيها وربعا أو جنيها ونصفا .. هو وشطارته فى انتهاز أزمة المستدين ، وكان النقاش يطول والسباب يعلو ، لكن الجميع كانوا فى العادة يتركون اختامهم وبصماتهم على الكمبيالات التى يقدمها لهم عبد الودود ، على أمل أن يسددوها بزرعة السمسم أو الذرة أو الفول السودانى ، لكن الموسم لا يمر الا ويكون (المنشار) قد ركب قيراطا ، او نصف فدان ، بحجة المشاركة لضمان حقوقه ..

وأولاد كنانة، يذكرون انه انتزع ملكية أرض بهانة، وسجلها باسمه وطردها منها ، بعد أن مات زوجها بمرضه الطويل ، والذى استدان بسببه الكثير من عبد الودود ، وقد لطمت بهانة وجهها ومرغته فى الطين وجاء الحاج نور الدين وقدم كل الديون من جيبه ، لكن عبد الودود رفض وقال أن الأرض صارت ملكه «اشتراها» بيع وشراء من المرحوم .. و .. هجت «بهانة» هى وأولادها من البلد .. ورغم انها حكاية قديمة ، الا أن سيرتها دائما واردة فى معاملاته مع الفلاحين ، وخاصة عطية الصعيدى الذى استدان فى العام الماضى خمسين جنيها ليجهز ابنه طاهر لدخول الجامعة .

. . . .

. . . .

قالت له وداد :

ـ « دكانتك اتحرقت من ظلمك يا منشار ! .. »

فزع عبد الودود ، كاد يموت لكن يده امتدت الى جيب صداره ، تأكد من وجود الكمبيالات فى حافظة نقوده القديمة ،

حاول أن يفهم ما حدث للبلد ، لكن البنت وداد تركته وابتعدت، كانت فى طريقها الى المستشفى لتطمئن على أبيها « على الطواب » ولحقت بها « أم حميدة » لتزور زوجها الأسطى سعيد الحلاق ، وقد حملت على رأسها لفة بها أرغفة من خبيز البنت وداد وعلى كتفها حملت طفلتها « حميدة » وسألت :

— « المشوار طويل يا وداد ؟! »

لم تنتظر أم حميدة جواب وداد .. كانت دماغها مشغولة بالتخمين بمصير زوجها الأسطى سعيد الذى حملته الاسعاف وفى صدره شاظية ، وأتعبها الخوف والقلق فسارت صامتة ، بينما خلعت البنت وداد شبشبها ووضعته تحت أبطها .. كان شبشبها مطرزا بصفيح لامع ، اشتراه لها باشكاتب محطة البنزين فى القنطرة ، الذى دابت على زيارته لتنظف له بيته منذ ماتت زوجته فى حرب ١٩٦٧!، و ..

سرحت وداد فى سنى عمرها التى تهرب من يديها سنة بعد سنة ، يوما بعد يوم ، ساعة بعد ساعة ، دون أن يطلب أحد يدها من أبيها ، وامتلأت عينيها بالدموع وهى تتذكر وجوه الطامعين فيها . الكل يريد ان ينهشها ، فى السر ، وامسكت بشبشبها فى يدها ، وهمت فى خطوها، عادت أم حميدة تسألها:

— «المشوار طويل يا وداد ؟! »

قالت وداد وعيناها تبحثان عن النهاية عند الأفق البعيد :

— « طويل يا أم حميدة طويل .. »

وحاولت ان تعرف لماذا كف طاهر افندى عن حديثه معها عن الزواج منذ دخل الجامعة ! ..

***

أدار عبد الودود البقال ، حماره ، وعاد باحثا عن مأوى بعيد

عن أولاد كنانة ، قال لنفسه : لى فى كل كفر وقرية مصالح .. ولابتعد الآن حتى تهدأ الأحوال ثم أعود لتحصيل الديون .. »
.. اطل حسنى الترزى من بقايا دكانته ليبصق ، فلمحه .. فهلل ساخرا : « على فين يامنشار الكلب .. » فزغر له عبـد الودود بعينيه وهدده : « ان ماربيتك يا حسنى ! ؟ » ثم هرول بحماره مبتعدا .. وشيعه الصغار بهتاف وتهليل وقذفوه ببعض الزلط والرمل ..

***

مالت الشمس قليلا ، رات وداد ظلها وظل أم حميدة ، فوق مياه المصرف الكبير .. كانت تفهم ماجرى حولها من عشرين سنة، رات اباها « على الطواب » وعطية الصعيدى ، والحاج نور الدين ومرسى العرضحالجى وعشرات غيرهم من أولاد كنانة ، كانوا أكثر شبابا فى ذلك الزمن ، كانوا مربوطين بحبال غليظة ، وكان خفـراء العزبة يضربونهم بأمر « الأرناؤوطى باشا » .. الذى يقف على الجسر بوجههالمتورم كحبة الطماطم الفاسدة، وسمعت أمهاـ عندما كان لها أم ـ تقول لها أن الرجال رفضوا العمل فى أرض البيه الا اذا زادت أجورهم فضربهم بالكرابيج وحبسهم فى المصرف الكبير ليكونوا عبرة للانفار والأجراء .. و .. مات بعض الرجـال فى الطين ، وذات يوم جاء العسـاكر ومعهم المهندسون وفتحوا الخرايط والدفاتر وقالوا أن أغلب ارض « الأرناؤوطى » يقع فى زمـام القرى والكفور المجاورة ، وليس له فى زمام أولاد كنانة غيرعشرين فدانا وزعوها على بعض المزارعين ، ولا تعرف وداد كيف حصل البعض على خمسة افدنة ، ولماذا حصل عطية الصعيدى على فدان واحد ، ولم تفهم ما قاله المهندس لأبيها :

ـ « على الطواب ، عملك بناء وعلى ذلك فانت لا تسـتحق أرضا لأنك لست فلاحا ! .. »

يومها ضرب ابوها نفسه بمداسه ، وقال :

ـ « انا على الطواب .. على الطواب الخواجه .. انا لست فلاحا ! .. »

ثم هده الغيظ ، وظل حابسا نفسه فى الدار اياما ، حتى صرخت أم وداد فى وجهه ، وأعلنت أن الدار ليس فيها رغيف واحد وانها استدانت العيش من كل الجيران ، وهددته بأن تبيع نفسها للافندية فى القنطرة أو تعمل خادمة لتطعم ابنتها وداد ، و .. زعق فيها على الطواب ، وضربها حتى أدمى وجهها وخرج مصمما الا يعود اليها ، لكن مرسى العرضحالجى استطاع اقناعه بالعمل فى أرض الحاج نور الدالى الى أن يرزقه الله ببناء قبر أو بيت ، واضاف ساخرا :

ـ « انا ايضا لم احصل على شبر من الأرض ـ وقلد صوت المهندس الاخنف ـ مرسى المنفلوطى العرضحالجى ليس فلاحا !»

وضحكا معا ، حتى دمعت عيونهما ، ودخنا الجوزة على قهوة برعى السويسى ، وتحدثا عن الزمن وعن الأولاد واتفقا على أنه اذا كان هناك خطأ فى التطبيق فليس معنى ذلك أن يفقدا ثقتهما فى كل ماحدث .. وغمغم مرسى العرضحالجى قائلا :

ـ « المسألة ببساطة اننا الآن ، فى مثل حالة شاب من أولادنا ، استقل بنفسه وتزوج وانجب وعليه أن يتعلم يوما بيوم كيف يسوس أمور بيته .. »

ثم أوضح الأمر لعلى الطواب ، قال :

ـ « اننا اليوم فقط بلغنا سن الرشد ، ولو عرفت أننا من آلاف السنين اجبرنا على أن نظل قاصرين ، وتركنا الأغراب يسوسون لنا حياتنا ، لفهمت انه لا يهم أن ظللت أنا وانت بغير

فدان ملك .. لأن الأهم — وصدقني يا رجل — أن البلد في أيدى ابنائها لأول مرة .. ولهذا الامر مشاكله التى لا يصح أن نستهين بها أو نتعامى عنها ! .. »

وحاول على الطواب أن يفهم .

***

جلست أم حميدة ، بجوار البنت وداد ، تستريحان قليلا على شط المصرف الكبير ، لفهما الصمت ، مر بهما عامل التليفونات ، معلقا ربطة من الأسلاك فى كتفه ، أوقف دراجته بجوارهما ، اشعل لنفسه سيجارة ، سألهما :

— « أولاد كنانة بعيدة عن هنا ؟! .. »

نظرت اليه وداد ، غطت أم حميدة وجهها بطرف طرحتها ، وتركت بقية الطرحة تغطى ثديها الذى القمته لابنتها ، قالت وداد بقلق :

— « فيه حد مات فى المستشفى ؟! .. »

اندهش عامل التليفونات ، عاد ينظر الى وجه وداد ، أعجبه جمالها .. عينيها ، شفتيها ، عنقها ، شعرها المتهدل مع طرحتها على كتفيها ، ساقيها المكشوفتين من زيل جلبابها الأسود الواسع .. امتص شفتيه ، وقال :

— « أنا مهندس التليفونات يا جميلة .. بتاع الألو ؟ ..»

وضحك ، ثم أحس ببواخة ضحكته أمام الألم الذى ينطق من الوجهين اللذين يتطلعان اليه ، والعيون المعبرة عن فداحة الكارثة التى سمع بها من الجرائد ، واحسها فى أوامر مديره الذى كلفه باصلاح أسلاك التليفونات التى دمرتها الغارة الهمجية على أولاد كنانة .. وبعد أن ملأ عينيه بنظرة أخيرة من جمال وداد ، انطلق

بدراجته لاعنا حظه العاثر الذى أوقعه فى يد زوجته التى تريه نجوم الظهر فى عز الليل ، ولا تكف عن الشكوى والزعيق هى وعيالها و ..

على باب المستشفى ، منعهما رجل سمين ، من الدخول .. قـــال :

ــ « ميعاد الزيارة انتهى .. » حاولتا أن تجعلاه يفهم انهما سارتا مشوارا طويلا ، وأن الليل سيدخل حالا ، وأنهما لابد أن تعودا الى « أولاد كنانة » ، ولكن البواب السمين أصر على منعهما من الدخول ، أرادت وداد أن تعطيه قرشا أو قرشين ليلين قلبه لكنها لم تجد مليما واحدا معها ، سألتها أم حميدة :

ــ « يكونشى الرجاله ماتوا !! »

ضربتها وداد فى صدرها بقوة فزعها ، وقالت بضيق :

ــ « افتكرى خير يا أم حميدة » .. لكن الخاطر ظل يعشش فى دماغها ، وهى تفكر ، كيف ستبيتان الليلة ، واحست بالشـــقاء يكتم انفاسها ، وتذكرت كلمة كان عطية الصعيدى لا يكف عن ترديدها :

ــ « ساصبر حتى يزهق الصبر من صبرى .. »

وحاولت أن تخمن : « معنى الصبر .. » ثم ســارت مع صاحبتها فى شوارع المدينة ذات الضوء الخافت .. وخلفهمـا سار أحد صائدى النساء .. وكان مظهره يفضحه !.

***

كان الحاج نور الدين ، يحاول أن يشرح الأمر لأولاد كنانة قـــال :

ــ « لنكف عن الكلام ، لنبدأ نحن ونحمل معاولنا ومجارفنا
وقالت ابنته ليلى :

ــ « والمساعدات ستصل ، لقد وعدونى بذلك فى المحافظة»
لكن حسنى الترزى ، أسرع يقــول :

ــ « الهدد مليان الغام .. وقنابل .. »

وتذكر الجميع ما حدث مرة أو مرتين ، عندما انفجــرت قنبلة موقوته فى اكــوام الخشب التى جمعــوها ولكن مرسى العرضحالجى صرخ فيهم :

ــ « اذا تركنا الولد حسنى هذا يعطلنا عن العمل ، فاننا لن نتقدم خطوة واحدة .. »

ارتعب قلب البنت سميرة ، كانت ترى ان الولد حســنى يبعد عنها بكل بكلمة يقولها ، واحتارت فى الأمر .. ودت لو تسأله لماذا يصر على اغضاب أبيها ، لماذا يتــكلم ، لماذا لا يقص لســانه الأعوج بمقصه وينخرس .. لكن الولد حسنى عاد يفاجئها بقوله:

ــ « ياناس نتكلم بصراحة شــوية . هو أنا مش عاوز ابنى دكانتى ودارى تانى زيكم . طبعا عاوز .. لكن اكوام الهدد مليانة بالمفرقعات ويلزمنا مساعدات جامدة ، واجهزة ومعدات كثيرة .. والبلد كل حاجة فيها تعبانة وعاوزة تصليح والدنيا كلها مشفاضية لنــا .. هى دى الحقيقة والا لا ؟! .. »

وصاح مرسى العرضحالجى فى غضب :

ــ هذه هى الحقيقة المؤلمة التى لا يخاف منها غير امثالك .. واننى احذرك اذا لم تكف عن كلامك الفارغ فساقطع عنقك بيدى .. اننا الآن فى قلب المحنة » .. واستدار الى الرجال والنساء والأطفال الذين يتجمعون فى صحن المسجد ، وأضاف :

ـ « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم .. »

فصـــاح حسنى الترزى : « يا عم مرسى .. ولا تلقـوا بأرواحكم فى التهلكة ! .. »

فصاح مرسى بغضب شـديد :

ـ « انكتم يا كافر .. يا طابور خامس !.. »

وحط الصمت والقلق . على أدمغة الجميع ، و .. وقف الحاج نور الدين بقامته الفارهة ، الصلبة ، وقال بصوته العميق:

ـ « زمان .. اجدادنا كانوا عارفين أن قوات الاحتلال أكثر .. وأسلحتهم أقوى .. ومع ذلك خرجوا بصدورهم يدافعون عن عرضهم وشرفهم .. وبنوا كل اللى انهدم .. لأن قلوبهم كانت عامرة بالايمان ! .. »

وبعد برهة صمت ، لسعهم بقوله :

ـ « أريد أن اقول ، أن اى تخلف وقصور هنا فى مواجهة قدرنا .. سيكون جبنا وخيانة .. اما انت يا حسنى وأمثالك من المتخوفين .. فاقول لك انه ما أسهل أن نختلق الأعذار .. لكن الصعب هو أن نقف الآن ونحمل المعاول .. »

ثم هرول خارجا، وأخذ يزيح أكوام الهدد باظافره ، والغضب يجتاحه من أعمق أعماقه ، انه يريد أن يجبرهم على العودة الى أصلهم العريق .. الى عنادهم المعروف الذى واجهــوا به كل الصعاب من قبل ، وازاح حفنــة من آثار الدمار ، ثم عاد ينشب أظافره فى التراب والآحجار ومخلفات الحريق وامتزج بعـرقه وصاح :

ـ « يجب ان نهزم الخوف الذى يربض فى أعماقنا قبـل أن يأكلنـا .. »

واندفع يعمل ، وهو منحن كالقوس المشدود وبجواره تكاثر أولاد كنانة ، واحدا بعد واحد ، امرأة بجوار رجل ، بجوار طفل انحنت ظهورهم ، اقتربت صدورهم من الهدد ، انشبوا أظافرهم فى التراب ، بداوا يزيحونه من الطريق ، وراديو الترانزستور ، الذى تركته البنت سميرة مفتوحا بجوارهم يحمل اليهم اغنية « الطشت قاللى يا حلوه ياللى .. » فاندفع حسنى الترزى الى الترانزستور وأغلقه بقرف ثم عاد وفتحـــه على الآخر ، و .. اتجه الى الحاج نور الدين وحمل عنه غلق التراب فى صمت .. وابتسم الحاج نور الدين فى رضاء .. وقال !

ـ كرامة الحياة ، تطالبنا أن يحمل كل منا قدره .. يجب أن نتوقع كل شىء .. ولكن من يريد أن يعيش بكرامة ، ورأســه لفوق .. لازم يواجه الخطر .. ويدفع الثمن .. »

وازداد حماس أولاد كنانة ، انغرست الأصابع والمعاول فى آثار الدمار .. كانت الأكوام كثيرة .. كبيرة وكان لابد من ازالتها ولو فى سنة ، ليخلوا المكان لبناء البيوت الجديدة ، ولكن .. فى لحظة مباغتة ، دوت فرقعة مخيفة، أثارت كمية كبيرة من التراب والدخان والعرق فوق أجسادهم وانطرح بعضهم فوق الأنقاض مرعوبا .. وصرخت البنت سميرة ، وزمجرت أصوات الرجال وهم يتنادون بالثبات ، وعدم الخوف .. و .. وسط الدخان والتراب ، كان الملازم مراد والرقيب مصطفى وبعض الجنـــود يهرولون فى سرعة خاطفة الى مكان الانفجار لاطفاء الحريق ، وقال الولد حسنى الترزى ، بعد أن تمالك نفسه قليلا !

ـ « مش قلت لكم .. الهدد مليان الغام وقنابل .. »

فصفعه مرسى العرضحالجى ، وظل يصفعه حتى أدمى وجهه وهو يزوم بغضب مكتوم .. وازداد رعب البنت سميرة ، وايقنت

انه الفراق بينها وبين الولد حسنى الذى سقط عند أقدام مرسى العرضحالجى عاجزا عن الذود عن نفسه ، واختلط التراب بدمائه ولسعته جراحه ، فصرخ :

ــ « كفاية يابا مرسى .. فى عرضك يابا مرسى .. »

واهتزت يد مرسى العرضحالجى، توقفت فى المسافة المحيطة بوجه حسنى الترزى ، حجزتها صرخته بكلمة « يابا مرسى .. » انه يحلم بولد ، منذ وعى الحياة وهو يريد ولدا يحمل اسمه .. يحقق أحلامه ، يسقيه حكمة العمر وعذابه ليكبر صلبا عنيدا ، جارحا كالنسور، ولقد رحلت أم سميرة وقبلها رحل كل أولاده وداخ بزوجته الجديدة عطيات على الدكاترة ، وظلت عاجزة عن انجاب الولد .. وهذا هو حسنى يفجر صبره الطويل بكلمة .. بصرخة « يابا » لم لا يجعله ابنا له .. لم لا يعتبره ابنه حقا ؟.. انه جاء وحيدا الى أولاد كنانة ، لا يعرف أحد ان كانت حكاياته صحيحة ام كاذبة ، الا انهم صـــدقوا ان الانجليز قتلوا اباه وأخذوا أمه ورموه خارج قشلاق فايد ذات يوم و .. انحنى مرسى العرضحالجى على الولد حسنى ، انهضه ، هزه بقوة ، ثم .. مسح دماءه بابوة .. اخذه فى صدره .. ربت على كتفه .. فبكى حسنى كالطفل اليتيم و ..

وضحكت البنت سميرة ، وجدت نفسها تضحك فاندهش أولاد كنانة وقال حسنى بضعف شديد :

ــ «اعذرنى يابا مرسى ... الغول اللى تحت الهدد مخوفنى»
قالت ابله ليلى :

ــ الحقيقة أن ما يحدث صعب .. مخيف .. لكن .. هل يصح أن نخاف .. ونتردد يا حسنى ؟ .. »

وقال الحاج نور الدين :

ـ « يجب أن ندرك بوضوح .. ان المخيف ، بل والمهين ، هو استمرار وضعنا هذا .. ان ترددنا يصيب أحلامنا كلها بالشلل ويعرقل مشروعنا لبناء أولاد كنانة فما قولكم ؟! » ..

ومرت الثوانى ، ثقيلة ، مزعجة ، والشمس تلسع جلودهم وعيونهم ترقب جنود الملازم مراد تفتش عن المتفجرات وسط أكوام الهدد ، دون خوف ، وآذانهم تستمع لصوت الحاج نور الدين يسألهم :

ـ « أمامنا مشاكل كثيرة . وصعاب كثيرة .. وآلام كثيرة .. لكن .. هل سنتحمل .. ونبنى بيوتنا .. أم نستسلم للخوف ونخنع أمام الشدائد ؟! .. »

وطال الصمت بعد ذلك ، والكل يعيد التفكير بينه وبين نفسه ليقرر مصيره بنفسه ، ويحدد موقفه : هل يهاجر فيهرب ، ويعلن ضعفه أم يبقى ويتحمل ويعمل كالرجال فى أولاد كنانة ؟! ..

الفصل الخامس

الجرح

في الكازينو العائم بجوار شط النيل سقط المكان والزمان في براثن اللون الأزرق القاتم .. ذابت الملامح ، اختلطت الأشياء، طال الصمت ، قال محمود القنـاوى :

ـ « تكلمى يا سهير لكى أراك ! .. »

قالت : « انني اختنــق ! .. »

عاد الصت أشد قسوة يحاصرهما ، حاول من جديد أن يخرجها من كآبتها ، قال لها :

ـ « اتعرفين لقد نقلت مع زملائى الى مكان آخر .. أصبحنا بالقرب من القناة و .. »

.. لم تسأله ، لم تهتم بحديثه ، فاشعل لنفسه سيجارة، كاد يندم لحصوله على أجازة ـ ٢٤ ساعة ـ ظل يدخن ويحدق في النيل من نافذة الكازينو الذي يهتز بعنف تحت أقدام الراقصين والراقصات في صخب .. احتسى قهوته الباردة ، عاد يقول لها :

ـ « اسمها .. أولاد كنانة .. دمرتها غارة قذرة .. لكن المدهش حقا ان الذين بقوا من أهلها .. كانوا أقوياء .. اتعرفين .. لقد رفضوا الهجرة الى مكان آخر واصروا على بناء بيوتهم و .. »

فاجأته سهير بقولها :

- « لم اكن أعرف أن العار مخيف الى هذا الحد ! .. »

حاول محمود القناوى أن يستنجد بما تعلمه فى محاضرات علم النفس بالكلية ، قال لها :

- « سهير .. دعينا نواجه الأمر .. علنا نعرف الأسباب ونصل الى حل .. »

بذلت سهير جهدا مضاعفا لتعبر له عن سخف اقتراحه دون أن تبالى ان كان ذلك سيؤلمه أم لا ، كان قد مضى وقت طويل على تلك الأيام الخوالى التى مارست فيها الحب والأشواق بمرح عندما كانت فى السويس .. لكن خطيبها مات ، قالوا لها انه استشهد فى سيناء فى حرب ١٩٦٧ .. صارت تشعر بأنها عبء على نفسها وعلى صديقها محمود القناوى وعلى الدنيا كلها .. قالت !

- « اما ان اهاجر أو أموت ! .. »

فزع محمود ، عندما كبر فى قريته بقنا ، سأل عن أبيه ، أخبرته أمه بأنه هاجر الى بحرى . ودخل محمود المدرسة لأن خاله كان يريده ان يصبح مأمورا لنقطة البوليس ، وعاد يسأل عن أبيه فقالت أمه انه قد يعود فى العيد القادم ، ومرت أعياد كثيرة ، واعتاد محمود أن يقول لخاله : « بابا » وذات ليلة دخل الدار رجل غريب ، أسود ، نحيل ، أشيب ، متهدل العمامة، وبكت الأم، وعرف محمود أن هذا الغريب هو أبوه صابر القناوى، ولكن .. قبل أن يتعرف عليه ، قبل أن يخبره أنه سيدخل المدرسة الثانوية فى العام القادم .. اختفى صابر القناوى، وحاول محمود أن يفهم لماذا يظل أبوه مهاجرا الى « بحرى » وذات يوم هدمت السيول أجزاء كثيرة من القرية وصارحته أمه :

ـ ابوك بيدور على تار قديم !.. »

لكن خاله هب فى الأم ليخرسـها ..

وفى الظلام همست الأم :

ـ « قلبى بيقول ان صابر القناوى اتجوز واحدة من بنات بحـــرى ! .. »

فزع محمـود ، قال :

ـ « هذه أشياء لا أعرفها عنك يا سهير .. كنت استنجد بك على الدوام كلما ضايقتنى الحياة !.. »

قالت : تلك أيام مضت بكل زيفها .. »

منذ سنوات أربع عرفها ورآها ساكنة جديدة مع أمهـا واخواتها الصغار ، فى الشقة المجاورة ، بحى العمرانية بالجيزة أعجبه جمالها ، ووجهها الأشقر المليح ،شعرها الأصفر ، عيناها العسليتان ، حديثها الطويل عن بلدتها السـويس ، عن خطيبها الذى لم يعد من سيناء ـ ١٩٦٧ ـ عن متاعبها فى العمل كمعلمة باحدى المدارس الابتدائية .. قال لها :

ـ « لا يصح أن تفقدى صبرك ! .. »

قالت سـهير :

ـ « كف عن الحديث عما يصح أو لا يصح ! .. »

اهتز رأسها ، اجتاحتها احزان الدنيا فى ثانية واحدة ، وملأت عينيها دموع القهر والغيظ ، تركها محمود تبكى، أراد أن يحترم احزانها .. كما اعتاد فى بداية تعارفهما ونزهاتهما فى غيطان العمرانية ، وحول قاعة سيد درويش ومعهد الباليه ٩ .
قال بعد فترة :

- « حبيبتى .. مهما حدث ، لا بد أن تتحملى ! .. »

ثم حكى لها ما حدث لأولاد كنانة وكيف واجهوا الخطر .. والخـــوف .

وباغتهـا بســـــؤال :

- « أين الارادة الفولاذية يا ســـهير ؟ .. »

كانت دائما تقول له انها ستقهر اية مشكلة،وكانت تدعوه الى تقليدها ، وعندما حدثها عن خاله الذى غضب منه ومن أمه لانهما خرجا عن طوعه،ورحلا الى «مصر» وسكنا وحدهما وسط الأغراب .. والأدهى من ذلك ان محمود رفض رغبة خاله فى ان يكون مأمورا لنقطة البوليس .. وصارحه بأنه يدرس الفلسفة وعلم النفس الآن ، ولم يفهم خاله ان محمود لم يحصل على مجمـوع الدرجات الذى يحقق احلامه ، و .. حاولت أمه أن تحل مشاكلهما المالية بصبر أيوب ، عملت « ملاية » فى بيوت العمرانية باعت قصب ، وفجل وترمس .. سألتها «سهير» أن كانت تحب أن تعمل دادة ، فى المدرسة الابتدائية ، ووعدتها أن تكلم لها الناظرة .. وافقت أم محمود وان تكن قد خجلت أن تسألها ، أو تسأل ابنها « يعنى ايه دادة » ، وكلمته سهير عن معنى الارادة والعصـامية ونصحته بأن يدبر لنفسه عملا ، وخاصة ان اخاه الأكبر فى قنا لا يرسل له نقودا منذ تزوج من ابنة خاله و ، كان ، وكانت ..

قالت ســـــهير :

- « انكسر الغطاء ، وظهر العرى والخداع فجأة ! .. »

اشعل محمود سيجارة اخرى لنفسه ، اخيرا قال لها :

- « صدقينى .. سيعود كل شىء ذات يوم .. وسيكون الحال أصدق مما كان .. هل اقسم لك بسيدى الغريب ؟!..»

وضحك ، لكنه فى نفس اللحظة كان قد فجر **فى أعماقها** أحاسيس كانت قد نسيتها فى زحام الحزن الذى **اجتاحها منذ** احترق البيت ومات الأب متأثرا بجراحه فى الزيتية ، **وظلت هى** وامها تحملان آثار الحريق فى جسديهما .. قالت :

ـ « كنت على وشك أن أحقق حلمهم فبعد شــهر كانت ستنتهى دراستى واصبح موظفة اشترى لهم بمرتبى كل شىء .. كان أبى يتباها بى بين أهل حى الأرتعين .. كان يقول لهم: صحيح أنا شيــال بواخر عجوز .. لكن البنت ســهير بألف راجل .. حتشيل الحمل عنى ! ..»

سقاها محمود قليلا من كوب العصير ، داعب انفها باصبعه ، جعلها تبتسم .. قال :

ـ « اقترح أن تتخلصى من هذه الأحزان فورا .. وإلا هلكتى يا قطتى الجميلة ! .. »

قالت سهير .. بأسى :

ـ « اختلط الحزن بدمى .. فلا فكاك منه ! .. »

اطفأ محمود القناوى سيجارته ، قال وعيناه تخترقان **الظلام** فوق النيل :

ـ «اننا نجلد انفسنا بقسوة ! ..»

ســـألته ســـــهير :

ـ « وهل هنـــاك حـل آخــر .. »

قال محمـــود :

ـ « نعم علينا ان نبدأ من جديد .. حتى لا نموت دون أن نـدرى ! .. »

قالت بحرارة : « كيف ؟!.. »

وشردت نظراتها فوق النيـل ، واضـافت :

– « هل من الممكن ان يلد الانسان نفسه من جديد ؟ ..

هل يستطيع أن يبدأ حياته وقد وصل الى الشيخوخة قبل الأوان ؟ .. ان يجلس بين الناس ليختار لنفسه اسما ولقبا من جديد .. أن يعيش أيامه وذهنه مشـغول بمحاولة العثور على بدايته : كيف كانت .. وعلى أى شكل وصورة يجب أن يعيش السنين القادمة .. هل كل هذا ممكنا يا محمود يا قناوى ؟.. »

قال محمود ، واصابعه تعانق أصابعها بحنان جارف :

– « أعرف أن سنوات عمرنا ظلت قاسية .. مزعجة .. وأن ما حدث قد دمر بداخلنا أشياء نحن الآن فى مسيس الحاجة اليها .. لكن .. صدقينى .. ان ايامنا القادمة اكثر صعوبة .. وهذا يستحق اهتمامنا .. ويتطلب حذرنا !» .

سـألته :

– « لو اعرف اسـباب تفاؤلك هذا ؟! .. »

ابتسم لها . وقال :

– « هناك سبب واحد مؤكد وهو اننى اما أن اتفاءل واما ان اموت .. وانا احب الحياة بعمق ! .. »

وحاول أن يجعلها تضحك ، لكنها فاجأته بسـؤال :

– « الم تمانى يا محمود ؟! ..

.. سيطرت عليه الدهشة لحظة خاطفة ، تذكر آلاف الأشياء المملة والخطرة التى واجهها منذ دخل الجامعة .. ويوم ارتفع

صوته مع المتظاهرين . ويوم كتب فى مجلة الحائط بالكلية رأيا صريحا جعل جهات الأمن تحقق معه .. ويوم سجن أسبوعا .. ويوم سأل نفسه : الى أين .. وكيف ؟ .. ويوم تخرج وحلم بالوظيفة التى تريح أمه وتحل مشاكله .. ويوم استدعى للتجنيد وأمروه بحمل الجاروف مع البندقية ليحفر لنفسه خندقا .. وتعددت الأوامر لبناء الدشم .. والقفز من سيارة مسرعة ، والغوص فى أعماق الأنهار والتعلق بالأسلاك واختراق الحواجز والحرائق و .. روى لها كيف اعتاد ذلك وأحبه فيما بعد ، وكيف تمكن من التخلص من المتاعب والملل بنجاح حتى الآن .. ثم داعبها بقوله :

ـ « اما أن تذهبى معى فورا الى طبيب لبحث أمرك وأمرى أنا ـ بالمرة ـ واما أن تأتى معى الى أولاد كنانة .. »

ولم تعلق بشىء .. فاكتفى بالنظر الى عينيها ، بحيرتى العسل الغامق ، كما يحلو له أن يصفهما ، اراد ان يقبلهما ، لكنها ادعت وجهها ، اطلت على النيل . اقتحمت اذنيها فجأة ضجة موسيقى الجاز وصخب الراقصين والراقصات .. وظل محمود يرقبها .. اراد أن يقول لها انه يرهق نفسه فى التدريبات مع رفاقه ليل نهار . وأنهم يحتملون كل شىء املا فى الوصول الى نهاية .. الى بداية جديدة ، ليحقق أحلامه المؤجلة ، وأن الملازم « مراد » لا يكف عن الحديث معهم بحماس عن دراسته للفلسفة .. ويحاول أن يشرح لهم الفقرة التى قالها « ارسطو » من « ان الوجود الحق هو العقل » .

وأن لهذا الأمر دلالته فالعقل لن يجد مجاله الا فى رحاب الحرية التى تساوى تماما كمية العرق المبذولة بسخاء فى اقتحام الدشم والتحصينات التى أجادوا بناءها على طراز تحصينات العدو فى خط بارليف ، وكيف ان أولاد كنانة ضربوا لهم المثل بفطرتهم

عندما تمسكوا بالصلة العميقة الجذور بينهم وبين تراب بيوتهم وغيطانهم ، .. قالت له :

ـ « ربما كان الخوف هو السبب ؟! .. »

قال محمود مستبشرا خيرا من اهتمامها بالمناقشة :

ـ « هذه التفسيرات ستتعدد وتتنوع ، حسبما تشاء لنا ثقافاتنا و .. عقدنا الشخصية ايضا .. لكن المؤكد انهم فى أولاد كنانة قرروا البقاء بتلقائية وعفوية ، تماما كما يتنفس الانسان منا، وكما يأكل ويشرب وينام ويصحو ويعمل ويعرق ويحب و .. »

ثم سالها : « ما رايك ؟ .. انهم سيعيدون بناء بيوتهم .. وسيصلحون حقولهم .. امامهم عمل شاق ومرهق .. هل تعملين معهم .. على الأقل فى شهور اجازتك ؟! .. »

سألته بالاندهاش « كيف ؟ .. »

.. حدثها طويلا عن « طاهر » .. عن « وداد » .. عن الحاج نور الدين وابنته «أبله ليلى» .. عن «مرسى العرضحالجى» وابنته سميرة .. عن الولد حسنى الترزى .. عن ..

وداعبته سهير : « أراك تحبهم !..»

قال محمود القناوى :

ـ « المسالة تبدو غريبة .. غير قابلة للتصديق .. لكنها فكرة رائعة .. ان يبنى الانسان شيئا هدمه عدوه .. اتعرفين، انهم لو نجحوا فى بناء بيت واحد .. جدار واحد فى أولاد كنانة .. فان ذلك يعد انتصارا ضخما ، لأنه يعنى ببساطة ان الانسان هنا لم يفقد ارادته ، وحكمة التاريخ تقول : أن سر الأسرار فى أولاد كنانة ، كامن على الدوام فى تمسكهم بالرغبة

فى الحياة .. بالبقاء .. بالأرض .. وانهم لهذا توحدوا دائما .. وصمدوا رغم ضراوة الجراح ! .. »

قالت سـهير :

– « **لا أعرف أين قرات مثل هذا الكلام ! .. »**

وداعبها محمود .. وقال :

– « أتعرفين فرنسيا اسمه « جيرار دى نرفال » ؟ لقد قال فى سنة ١٨٤٠ « ان مصر الوقورة التقية هى دائما بلد الألغاز والأسرار » .

.. كانت سهير تتراجع الآن بسرعة عن فكرتها التى صممت على مناقشتها مع محمود .. كانت تريد منه أن ينساها ، أن يكف عن حبها ، لأنها قررت ان تهاجر الى الكويت أو السعودية او الى كندا .. اوروبا .. وفكرت أن تسأله عن رايه فى انسانة اضطرت أن تخطىء منذ يومين عندما ذهبت مع احدى صديقاتها الى شقة خاصة فى وسط القاهرة و .. ستقول له انها تكره التبرير ، وأن الوقاحة ما زالت فى بعض النفـوس ، وان ذلك المدير القمىء الغبى ، حاول استدراجها لكنها قررت أن تخطىء بارادتها .. تماما كمن ينتحر .. وقررت أن ترحل الى مكان بعيد بجرحها الدامى .. لكنها سألت محمود :

– « **كيف اذهب الى أولاد كنانة ؟ » ..**

ضم محمود القناوى أصابعها فى راحتيه ، بحنان ، بمـودة ، بحب ، كانت ترتجف ، قال :

– « **هذه ليست مشكلة .. عليك ان تحصلى أولا على اجازة**

من عملك .. ثم تلحقى بى هناك .. وستعيشين تجربة مثيرة .. تملأ قلبك بدفء الحياة حقا .. »

.. ومرت مركب فى النيل ، اهتزت الأمواج الهادئة ، اهتز بهما الكازينو العائم ، تلاشى صخب موســيقى الجاز .. جلس الشبان والبنات مرهقين وأخذوا يحتسون البيرة والعصير .. ارادت سهير أن تقول لمحمود :

ــ « لن يأتى النجاح بغيرك تحمينى .. انظر .. لقد حدث الشىء البغيض حينما كنت بدونك .. ولم يكن القلب قد عرف انى ســأتخلى عنك ، ولم أكن قــد سكنت معك حتى اتصرف بمشــورتك .. زميلتى دبرت المكيدة مع أحــد الجبناء الخادعين ، الذين يضحكون لك وهم يسعون لدس السم فى طعامك .. هل خــدع أهل المدينة بأفعالهم ، ان الحظ السىء يتعقبنى منــذ ولدت ولم يوجد من يعدلنى سباقا الى الفضائل ، لقد جست خلال الليل الطويل ، فى ظهر ابى .. فى بطن أمى ، على صدرها وتعلمت حكمة الدنيا .. لكن .. الكارثة مع ذلك وقعت ! .. »

قال محمــود :

ــ « اتعرفين ياسهير .. اننى اتحدث اليك كثيرا فى الموقع.. واسمعك تحدثيننى .. آه لو تعرفين كم هو رائع صوتك ونبراته العذبة تمتزج بترانيم الليل و .. وشوشات الأرض وصهد الشمس وصوت المطر .. وخوذتى فوق راسى ملتصقة بجبهتك وشعرك .. آه لو أعرف كيف أتحدث كالشعراء .. اذن لقلت ما قاله شاعر فرعوتى قديم ! « لا تدع قلبك يبتئس .. » ثم سألها :

ــ « ومتى نتزوج ؟ .. »

ارادت سهير ان تغتسل من خطئهافى ليلة امس الأول ،

نهضت ، عانقت محمود .. اعطته كل أشواقها واحلامها فى قبلة طـــويلة .. وقالت :

ـ « ستراني في أولاد كنانة بعد يوم .. بعد يومين !.. »

.. أخبرها أن اجازته تنتهى الليلة ، وانه سيفرح عندما يقدمها الى زملائه فى الموقع .. واضاف :

ـ « ستحبين ليلى و .. وداد .. وسميرة .. انهم مثلك يا حبيبتى .. »

.. وفرقعت كلاكسات بعض السيارات التى حملت الشبان والبنات الذين ملوا الرقص والمرح هنا و .. سار محمود مــع سهير على شط النيل ، اكلا بعض الترمس ، نظرا الى المياه .. فاجأها باقتـــراح :

ـ «ما رايك .. نستحم فى النيل .. نغوص حتى الأعماق؟»

فضحكت سهير ، والصقت راسها بصدره .. وهمست :

ـ « احبك .. احبك ! .. »

اندهش محمود .. انها أول مرة يسمعها تعلن حبها له .. هكذا .. بغير تردد .. بغير صمت ، ضم رأسها الى صدره .. وقبل شعرها . ووجهها .. عينيها . عنقها ، همس فى أذنيها :

ـ « هذه بداية عظيمة ؟ ..

وسار بجوارها .. وثمة افكار كثيرة .. تملأ خياله ، لكن جرحها كان غائرا .. فى الأعماق فتمنت لو تغرق أو .. تتلاشى !.

الفصل السادس



كانت « عزيزة » تنظر الى أبيها « مختار الأرناؤوطى » بقلق .. كانت تنتظر قراره .. جلست بجوار كتبها التى ركنتها على المقعد ... وقف أبوها يحدق من نافذة مكتبــه بالدور العلوى بالعمارة .. رأى شوارع القاهرة تلمع بأضواء زرقاء قاتمة ، أدرك أن ما حــدث عام ١٩٦٧ له ذيول طويلة مريرة .. أيقن انه كان يجب ان يهاجر ليستثمر ذكاءه وكفاءته فى انجلترا طالما انه عجز عن نيل ثقة الناخبين فى نقابته ، عرف انه انشغل فى قضايا كان كثيرون غيره يرفضونها ، وقد أرضاه ضيق زملائه بأساليبه الساحقة فى كسب بعض هذه القضايا ، كان يهمه أن يســحق خصومه بالضربة القاضية حتى ولو كانت تحت الحــزام .. انه يتقن حججه ويصفها بالبراعة ، كان يفضل لغــة الملاكمة التى حاول أن يكون أحد نجومها أثناء دراسته بكلية الحقوق ، ثم اخرجه خصمه مهزوما بكسر ضلع فى قفصه الصدرى ، فنقل حلبة اللعب الى صفحات الكتب حتى نجح ، ولمع فى ساحات المحاكم ، رفع أجره بشقة كبيرة ، واستأجر شقة خاصة فى الزمالك ، واخــرى فى الاسكندرية ، لم يعد يرى غير نفسه بعد أن انفض زملاؤه ، صارت له صديقات جميلات .. باغتته ابنته عزيزة ، بسؤال :

ـ « تخاف على يابابا ؟ .. »

استدار اليها ، لقد لسعته كلماتها الصريحة ، أوقفته على حافة هوة عميقة فسيحة تفصله عنها ، انه لم يفكر فيها من قبل كما يجب .. كانت تنمو ، تكبر ، كان فى البداية يحرص على أن ينمى عقلها ، علمته تجاربه أن البنت التى تعرف كيف تستعمل عقلها فى الوقت المناسب ، تكون أقل عرضة للزلل .. كان يطلب من زوجته ان تشجع عزيزة على القراءة ، لتعرف الصواب من الخطأ لكنه ما لبث ان انشغل عن كل شىء فى بيته ، صـــارت حياته خارج محيط اسرته .. وكان يفاجأ فى بعض الليـــالى اذا ما عاد مبكرا ــ بأن ابنه « ماهر » قد تعارك مع عزيزة .. فكان لا يبدى اهتماما غير زجرهما .. وكانت زوجته تخبره بأن الولد يغار على اخته ، ويصر على ان تطيل ثيابهــا ، وان البنت رأسها ناشــفة وعنيــدة ، وكان يضــحك مرهقا ويقول ساخرا:

ــ « طالعة لأمها الحسناء ! .. »

ثم يسكتها بقبلاته المتراخية ، ربما ليعتذر لها عما تجهله من عبثه مع صديقاته الفاتنات ، وكان .. وكان ..

الحت عزيزة فى سؤالها ، ثم أضافت :

ــ « يا بابى .. انا كبرت ! .. »

وجد نفسه يقترب من ابنته ، لاحظ أنه رفع يده شبرا لتطول كتفها ، أدرك أنه قصير القامة نوعا ، وأن البنت قد كبرت فعلا .. استدار جسمها الرشيق، ترز صدرها، فاحت رائحة النضوج من شفتيها ، عينيها ، شعرها .. أغمض عينيه فى ضيق شديد عندما ذكرته باحدى صديقاته ، سألها فى خوف :

ــ « عزيزة .. هل .. ؟! »

ثم لحق نفسه ، اسكت لسانه عن ســؤال وقح اوشك ان يوقعه فى ورطة مع ابنته ، عدل فى سؤاله قليلا :

ـ « ماذا يعجبك فى الولد طاهر ؟!... »

وأسرع يضيف ، ليخفف من دهشة ابنته .. من ضيفه .. ليلف المعانى التى يود أن يقولها ويخشى بذاءتها :

ـ « أقصد .. أنه مجرد زميل لك فى الكلية .. أليس كذلك . وأنت بالتأكيد لاترينه خارج الكلية .. وانه .. أقصد أنك لا ترين فيه شيئا يختلف عن بقية الأولاد .. وانكما تلتقيان حتما وسط الطلبة والطالبات فقط و .. »

قاطعته عزيزة :

ـ « بابا .. ماذا تقصد ؟! .. »

أغضبه سؤال ابنته ، لكنه تغاضى عن لومها وتقريعها ... وبالغ فى مودته وهو يقول :

ـ « أقصد انك كبرت فعلا ، وصرت عروسا حلوة .. و .. ربما كان الولد طاهر يطمع فى .. فى .. أقصد أنه ليس فى مســتواك الاجتماعى .. انه ليس الرجل المناسب لانسانة جميلة، ومثقفة وممتازة ! .. »

ظلت عزيزة صامتة ، تكتم دهشتها ، وجلس والدها لاهثا .. اتعبته المراوغة ، تشاغل بتدخين سيجار « هافانا » الفاخر ، فشل فى اخفاء قلقه ، جلست عزيزة على ركبتيه ، لفت ذراعيها على عنقه السمين ، واراحت رأسها على كتفه .. لاحظت أن الشعر الأبيض يغزو رأس ابيها ، داعبته بنزع احدى الشــعرات البيضاء فضحك .. قالت له :

ـ « سأذهب مع زملائى وزميلاتى يا بابا .. انها تجربة مثيرة للخيال .. كنت دائما أقرأ عن الذين رفضوا الاستسلام لدمار العدو .. لحقده ، وسمعت كثيرا القول باننا أمة تحارب بيد وتبنى

باليد الأخرى .. لكننى لم أمر بالتجربة من قبل .. لم أعشها أبدا .. فأرجوك يابابا توافق .. سيكون معنا الدكتور نعيم رائد القسم بالكلية .. و .. الحكومة نفسها موافقة !..»

ضحك والدها ، حاول اجتياز السنوات الكثيرة التى تفصله عن ابنته عزيزة ، حاول أن يوضح لها موقفه من الحياة والبلد والحرب والدمار ، لكنه خشى أن يفتح عينيها على أمور كان يرى انها محظورة على أولاده ، أنه فى يوم ما كان فى مثل عمرها ، وكان يكتفى بالفرجة ــ من بعيد ــ على زملائه الطلبة والطالبات فى مظاهراتهم ضد الملك فاروق .. وضد الانجليز ، كان والده قد أقنعه بأنه يتربى فى خير الانجليز الذين منحوه عملا مربحا فى توريدات قواتهم المسلحة المرابطة فى ثكنات العباسية وقصر النيل، وانه يريد أن يحصل أيضا على توريدات ثكنات فايد والاسماعيلية ولذلك حذره من الاستهتار والانسياق مع « المهاويس » الذين يتظاهرون فى الجامعة ضد أسياده ، بل أنذره بأنه لن يتردد فى قتله بيديه اذا اشترك مع أولئك الذين يظنون انهم سيحررون مصر من الملك والانجليز بالخطب والمظاهرات .. واتهمهم صراحة بأنهم مجانين و .. صدق « مختار » كلام أبيه ، ولم يكن مستعدا للتفريط فى السيارة الجديدة التى صارت ملكه منذ دخل الجامعة، ولم يكن مستعدا للتخلى عن سهراته الحمراء فى الشقة الفاخرة التى تركها له أبوه « ليذاكر » فيها دروسه مع زملائه وقتما يريد ! ..

سألته عزيزة :

ــ « بابا .. أريد أن أجرب فرحة الانسان عندما يعمل شيئا نافعا .. انك تعود الينا سعيدا عندما تكسب قضية و .. »

أسكتها مختار بملل وضيق ، واقترح أن تؤجل المسألة الى الصباح ، فباغتته عزيزة :

ـ « منذ زمن طويل وانا لا اراك فى الصباح يا بابا .. »

.. لم تكن تعرف أنه يعود كل ليلة مخمورا متعبا ، وينام، يجتر فشله فى تسلق احد مناصب مجلس النقـــابة ، بعد ان كشفوا خداعه ، وكثيرا ما كذبت أمها ، قالت لها مرارا : « انه متعب من المرافعات فى القضايا .. » ، ولكن اخاها ماهر همس لها ذات ليلة ، ليغريها باعطائه خمسة جنيهات سلف .. قال :

« سأحكى لك سرا خطيرا .. » ثم .. أخبرها بأن « اباها مقطع السمكة وذيلها و .. » أفاض فى التفاصيل التى عرفها بالمصادفة من احدى صديقاته التى باحت بأسرار أبيه ، عندما غلبتها الخمر ، وأعلنت أنها تملك مفتاحا لشـــقته الفاخرة فى الزمالك ، بل .. دعته لقضاء الليلة معها فى نفس الفراش ! .

لم تصدق عزيزة ، اتهمت أخاها بأنه يكذب ، ولكنه عندما اقسم لها بشرف ماما .. اتفقت معه على كتمان الفضيحة ، وان ينسى كل شيء .. من أجل ماما .. كانت ترى ان اباها يناورها .. كانت تريد ان تكسب منه هذه القضية .. قالت :

ـ « قد لا تكون واثقا من طاهر .. انه خجول .. لكن أفكاره جديرة بالاحترام و .. »

قال ابوها دون ان يخفى اشمئزازه :

ـ « من سوء الحظ اننى عشت حتى رأيت الجامعة تفتح ابوابها هذه الأيام لأمثال هذا الولد .. »

ذهلت عزيزة ، اتسعت عيناها ، اذن فهذه هى أفكار أبيها طوال الوقت .. وانقشعت سحابة كثيفة عن ذهنها ، كانت لهم عزبة وفدادين كثيرة ، وفى يوم .. كانت صغيرة ، رأت جدها يموت بالسكتة القلبية عندما دخل رجال الحكومة القصر وجردوا

املاكه وكنوزه و .. ثار فيهم أبوها ، هددهم برفع قضية أمام مجلس الدولة ، وقال لهم :

ـ « كيف تجرؤ الحكومة على مصادرة أملاك الأعيان .. »
فسخر منه أحد الرجال ، وأمره بالتوقيع على الكشوف التى اعدوها ، ونصحه بأن يحمد الله كثيرا لأنه سيجد بعد كل ما أخذوه ، ما يكفى حاجته وزيادة ..

قال الأب ، وهو يدير ظهره لابنته :

ـ « لا تسيئى فهمى يا عزيزة .. انك فقط غارقة فى الخيال .. و .. انه فارق السن يا ابنتى .. اننى من جيل غير جيلك .. ولا أفهم جنون الشباب هذه الأيام .. لقد هزمنا وانتهى الأمر منذ سنة ١٩٦٧ .. ولا أعرف لماذا نراوغ .. اننى .. اننى مضطر لأن اصارحك برأيي .. ولتظنى ما تظنى .. لكن لا تنس اننى والدك .. وادرى بمصلحتك .. انك مخدوعة فى افكار الولد طاهر .. فهو مخبول .. »

صاحت عزيزة محتجة :

ـ « بابا .. ارجوك ! .. »

لم يعرها اهتماما ، استمر يجلدها بلسانه الذى تجمعت فى طرفه كل أحلامه المجهضة ، وفشله أمام زملائه ، قال :

ـ « ولنفرض ان هـــذا الولد واهله سيبنون بلدهم .. لنفرض .. فما هى النتيجة ؟ .. ان طائرات الفانتوم ستهدمها عندما تريد اسرائيل فى أية لحظة ! .. »

امتقع وجه عزيزة ، لم تحتمل كل ما قاله أبوها .. فكرت أن تتركه وتخرج ولا تعود أبدا ، لكنها تذكرت كلمات طاهر عندما

أخبرها بفكرته وحدثها عن احلام أولاد كنانة .. « قد لا يصدقنا أحد .. لكن المهم ان نبدا .. ولو نجحنا فى بناء جدار واحد فمعنى ذلك أننا اثبتنا صحة ما نحلم به .. » ، وعندئذ واجهت اباها وقالت له ، دون ان تخشى شيئا :

ــ « على فكرة يا بابا .. تذكر انني قدمت لك طاهر وطلبت منك أن تدبر له عملا .. »

وهز والدها رأسه ، محاولا تخمين ما تريد الوصول اليه، لكنها فاجأته وهى تنصرف :

ــ « أنه ليس فى حاجة الى مساعدتك .. فلقد حصل على وظيفة بأجر كبير ! .. »

و .. خرجت ممزقة الأعصاب .. وحاولت اقناع نفسها بأنها ازعجت اباها بهذه الكلمات التى جاءتها عفو الخاطر ، لمجرد أنها لم تشأ ان تخرج مهزومة ، كان قاسيا وهو يكشف لها عن آرائه الملتوية ، كان شرسا ، مزعجا ، ولم تكن تعرف كيف تسكته او تقنعه بأنه يعيش فى ظل الأوهام ، وانه من جيل محكوم عليه بالانقراض اذا لم يفق ويواجه الواقع .. وأحست بفداحة المأساة التى خلقها أبوها لنفسه ، وادركت ان اشياء كثيرة فى أعماقها آيلة للسقوط ، وان ثمة شيئا جميلا يريد أن ينمو وسط الهدد، فأسرعت الى بيت الطلبة .. كانت تريد أن ترى « طاهر » .. أن ترتمى فى احضانه ، ان تتعلق بعنقه ، ان تبكى على صدره، ان تسمع منه ما يعيد اليها ثقتها بنفسها وبأحلامها ، أن تعترف له برعبها أمام ما باح أبوها .. أن ..

.. لكنها فى فناء بيت الطلبة توقفت وقد أصابها الاندهاش، كان أمامها مسرح عريض ، وفوقه زملاء وزميلات بملابس كاكية مزركشة ببقع داكنة .. وكان الدكتور نعيم رائد القسم يشرف

على البروفات : أصغت اليهم .. كانت مشوشة الفكر ، لكنها تدريجيا بدأت تفهم ما يفعلونه ، تعى ما يقولونه ، ثم .. فوجئت برائد القسم د . نعيم يشوح بيديه ويوقف البروفة ، قائلا :

ـ « يا أولادى .. الانفعال هنا يضر بنا .. اسمعونى جيدا .. اننى على ما يظهر لم أنجح فى توضيح المسألة لكم كما يجب.. لا بأس .. ان الخلفية التاريخية للقضية هى كما يلى . اننا نسعى الى بلورة الموقف التاريخى الذى من أجله سنقدم هذا العرض.. أليس كذلك ، وسبق ان أخبرتكم بتفاصيل تاريخية تهمنا ، ونصحتكم بقراءة « تلخيص الابريز » لرفاعة الطهطاوى ، لنعيد فهم التاريخ الحديث ونناقشه من ناحية ، وحتى لا ننفصل عن جذور الفكر المصرى الخلاق فى عصوره المختلفة .. وعلى ذلك أرى أن نتذكر معا وجهة نظره التى تقول : « ان الانسان من بين جميع الحيوان لا يكتفى بنفسه فى تكميل ذاته ولا بد له من معاونة قوم كثيرى العدد حتى تتم حياته طيبة ويجرى أمره على السداد ولهذا قال الحكماء أن الانسان مدنى بطبعه .. أى هو محتاج الى مدنية فيها خلق كبير لتتم له السعادة الانسانية . فكل انسان بالطبع والضرورة يحتاج الى غيره ، فهو لذلك مضطر الى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة ويحبهم المحبة الصادق لأنهم يكملون ذاته ويتممون انسانيته الى آخر ما يقوله مفكرنا المصرى النابه الذى وصل الى حقيقة تهمنا هنا وهى : أن الانسان لا بد أن يحافظ على فضائل العفة والنخوة والسخاء والعدالة ، بكل قواه وملكاته وممتلكاته .. » .

وفاجأهم صوت ، اكتشفت عزيزة فى صاحبه أنه أخوها ماهر .. كان يقول :

ـ « دكتور نعيم .. اننا هنا لنمرح قليلا ! .. »

لم يغضب الأستاذ .. فقط عاتبه ، بقوله : « انك تمرح بما فيه الكفاية يا ماهر .. منذ ولدت .. واعتقد أن الوقت حان لكى تكون جادا ومفيدا .. وانا على ثقة من انك ســـتكون كذلك اذا أردت حقا !! .. »

فأسرع ماهر يوضح ما أراده .. فأضاف :

ـ « اقصد .. اننا نتدرب على هــذه المسرحية لمهرجان الكليات .. وســنفوز بالكأس اذا اهتممنا بالجـانب الفكاهى من المسألة .. »

و .. وصعد اليه الدكتور نعيم ، وقف أمامه على خشبة المسرح واخذ يتملاه طويلا ، ثم سأله :

ـ « الم تســـمع ما قاله زميلك طاهر عما حـــدث لأولاد كنانة ؟! .. انه مجرد نموذج لكل ما حدث لنا ..

قال ماهر :

ـ « ما هى العلاقة بين ما نتدرب على تمثيله ، وما قلته سيادتك عن الانسان والمدنية ، وبين ما حدث لأولاد كنانة ؟! » .

عندئذ صاحب عزيزة ، وقد أحست بأن أخاها يكمل غرس السكين التى طعنها بها أبوها فى قلبها ، صاحت فأدارت الرءوس تجاهها ، وقالت :

ـ « بل هناك علاقة يا ماهر .. أن الدمار الذى حل بأولاد كنانة شاركت أنت و .. « كادت تقول وأبى » لكنها قفزت اسمه بسرعة وأضافت ـ كلنا شاركنا فيه بشكل أو بآخر .. »

وخنقت الدموع صوتها ، فانهارت على احد المقاعد ودفنت وجهها بين يديها .. اسرع اليها طاهر وقد أفزعه حالها بينما اضاف الأستاذ بأبوة :

ـ « هناك حكمة يجب ان نعيها ، خصوصا وانتم من جيل سيحمل مسئولية الوطن فى قادم الأيام .. وهى أنه لا انفصال ابدا بين بحث رفاعة الطهطاوى ـ كمثال ـ عن المعرفة فى باريس ذات يوم ، وبين واجبنا فى ردع العــدوان الذى يهـدد أمتنا وسلامتنا .. أن الحرب تقوم لأسباب حضارية اساسا ، وغارات العدو تستهدف عقولنا بنفس الدرجة التى تستهدف بها قاعدة أو موقعا عسكريا لنا .. اتفهمون يا أولادى .. واذا كان لى أن اخمن فاننى اقول لكم واثقا : ان الجندى الذى يذود عن ديارنا فى صمت يعرف هذه الحقيقة والا .. فأبسط شىء كان يمكن حدوثه هو أن يفقد هذا الجندى ـ صبره ، شجاعته ، ويستسلم لغواية الملل وضلال اليأس ، وهذا ما يجب أن نعيه تماما ... ونحن نستذكر دروسنا ، ونحن نلهو بمسرحية ، ونحن نمرح فى نزهة بل ونحن نمارس الحب ايضا .. اننى اعنى ما اقوله .. »

واحنى ماهر راسه ، وقد اثقله الخجل من عبثه واستهتاره .. لكنه لم يعتذر ، و .. هرب من نفسه ، الى اخته .. حاول ان يفهم ما حدث لها ، و .. ربت على راسها باعتذار ، فتطلعت اليه .. وأرادت ان تبوح بما سمعته من ابيها ، لكنها تراجعت وغمغمت :

ـ « العقبات مازالت كثيرة .. مرهقة .. »

لفهم الصمت برهة طويلة ، ثم قال طاهر :

ـ « على راى اولاد كنـــــانة .. اللهم افرغ علينا صبرا »

واضاف ، وهو يضع يده على كتف ماهر ، واليد الأخرى تنهض عزيزة من جلستها !

ـ « أتعرفون .. عندما فزع أولاد كنانة من الألغام المخبوءة

فى أكوام الهـدد ، قال لهم الحـاج نور الدين : « لا تهنوا .. ولا تضعفوا .. انه قدرنا .. ولن نهرب منه .. »

هزت عزيزة رأسها ، ثم قالت بثقة كبيرة ، شعرت بهـا تتولد فى أعمق أعماقها :

ـ « سأذهب معك يا طاهر .. وليحدث ما يحدث ! »

و .. نظرت الى أخيها ماهر .. كانت تنتظر منه كلمة .. موقفا يخالف ما سمعته من أبيها .. لكن انتظارها طال ، فصاحت فى وجهه غاضبة :

ـ « ما هنا .. أليست هذه بلدنا .. !؟ »

وحاول أخوها « ماهر » أن يهدىء من ثائرتها ، لكنها فاجأته بصفعة قوية وجهتها بكل غيظها الى وجهه وهى تسأله :

ـ « لماذا لا تهاجر .. لماذا تبقى هنا !؟ »

الفصل السابع

الخطر

انفتح باب الخيمة . ودخـل الرقيب مصـــطفى القطورى فصاح القاتل سالم المنصورى بصوت يعكس ما توارثه .. وتعلمه من قوة الشكيمة ودقة الانضباط :

ـ « ثابت ! .. »

فثبت كل منهم فى مكانه ، حول « براد الشاى » الذى كان يغلى ، وضحك الرقيب مصطفى وداعبهم بأبوة :

ـ كما كنت ! .. »

وجلس بينهم وهو يضيف :

ـ « يا أولاد نحن فى وقت الراحة .. فاستريحوا .. »

على الفور ، عاد سالم المنصورى يعد اكواب الشـــاى ، وواصل زميله أحمد الشعرانى كتابة رسالته الى خطيبته « وفاء » و .. كان منفعلا وهو يقول لها :

ـ « حذرى والدك يا وفاء .. اذا لم يكف عن فتح ابوابه لطالبى يدك المجانين بحبك ، فسوف أحصل على اجازة فورا ، وأصل اليه بسرعة البرق واحطم رأسه .. قولى له اننى متمسك

بك .. واننى ما زلت حيا .. ام انه ابن الـ.. يظن اننى سأموت.. معذرة ياوفاء، فالسيد والدك له تصرفات تجن العاقلين، هل لأنه نجح فى تجارته ، وتوسع فيها ، وصار له شركاء يظن انه أصبح حر التصرف فيك ؟! .. ان مصيرك ومصيرى مرتبطان معا .. ويجب أن يفهم أبوك هذا .. ولا تغضبى اذا كنت مصرا على أن اباك ربما كان على علاقة مريبة بتجار السوق السوداء .. لأن مخى لا يجد تفسيرا معقولا للأرباح المتزايدة التى حققها والدك المبجل فى زمن الحـــرب .. لقد كدت أفاتحه فى الأمر فى أجازتى الأخيرة لكننى اكتشفت انه يتعامل بدهاء شديد مع زبائنه وشركائه، ويعرف كيف يستثمر الهواء الطاير لمصلحته ، ولكن .. اذا وصل الأمر الى حد استثمارك انت بالذات فلن يمر الأمر بسلام .. وعليه أن يراجع نفسه كثيرا قبل أن يبيعك زوجة لابن أحد شركائه الجدد .. و .. احتملى يا وفاء .. فأنا قادم ذات يوم قريب لأصفى الحساب مع والدك المحترم .. »

كان زميله السيد البنهاوى يعزف على نايه طول الوقت ، وعندما انتهى احمد الشعرانى من خطابه ، كف هو الآخر عن عزفه ، وضحك وقال :

ـ « نفسى مرة واحدة .. ارى أحمد الشعرانى يكتب جواب حب .. لخطيبته وفاء .. تصور يا شاويش مصطفى .. فى كل جواب يتخانق بالشكل ده مع البنت .. ؟! »

ثم استدار السيد البنهاوى الى زميله أحمد وأضاف باشفاق :

ـ « اسمع كلامى يا شعرانى .. تزوج وفاء .. أو على الأقل اكتب لها كلمتين حب ناعمين .. حلوين »

صمت السيد البنهاوى عن الكلام ، وبدأ يحلم مع صوت

نادية الذى لا يفارقه أبدا .. حتى فى ساعات التدريب ، يحمله فى جيب الأفرول ..

طوى أحمد الشـــعرانى الجواب ، وهـــو يقول :

ـ « أعمل أيه .. أبوها أصله جبان قوى ! .. »

ثم سألهم .. « الاقى صندوق بوستة فين دى الوقت ؟!.. »

وأدرك الجميع أن « أولاد كنانة » يلزمها .. ايضا .. مكتب بريد ، وشبكة مواصلات حديثة و .. قال محفوظ الفيومى ، الذى كان منهمكا فى احتساء الشاى وتدخين سيجارته :

ـ « نقول لهم يبنوا مكتب بريد مستعجل .. »

فقال الرقيب مصطفى بدهشة :

ـ « نقول لهم ؟! .. نقول لمين ؟! .. »

ـ « نقول لأولاد كنانة .. مش هم حيبنوا بلدهم ؟! .. »

قال الرقيب مصطفى :

ـ « وهل نتفرج عليهم ؟! .. »

انتبه الجنـــود الأربعة ، اقتربوا برؤوســـهم من رقيبهم مصطفى ، كانت تراودهم أحلام ، الفكرة .. لكن احدهم لم يعلن رأيه من قبل ، قال الرقيب مصطفى القطورى :

ـ « من زمن بعيد .. يمكن من عشر سنين ، كنت فى مهمة .. فى قنا .. تعرفوا انى يومها شفت مالا عين رأت من قبل ، كان فيه سيول نازلة من الجبـــل زى الشـــلال .. اكتسحت السيول .. البيوت والغيطان والشجر .. الناس كانوا ساكتين

مسهمين .. لكنهم .. فى لحظة واحدة .. فاقوا ،، وقفوا زى السد .. زى مارد له مليون دراع .. حاشوا السيول باجسامهم وعوموا أطفالهم فى « اطشات » الغسيل وفوق الواح الخشب . وبعد شوية .. زى ما تكون الأرض انشقت وطلعت قوارب ومراكب وهليكوبتر وجت ناس ميات ميات .. ألوف ألوف .. القصد .. الناس زى ما تقولوا كده .. الروح ردت فيهم .. اتملوا عافية .. وزى النمل .. فضلوا يشتغلوا ليل نهار .. وبعد كام يوم كان فيه بيت بيتبنى من جديد .. وبعده بيت وبيت و .. من غير ما حد يدرى البلد اتبنت » .

صمت الرقيب مصطفى لحظة ثم أضاف :

ـ **« يا سلام على ناسنا يا ولاد ساعة الشدة ! .. »**

وسأله احمد الشعرانى ، والجواب مازال فى يده :

ـ **« قلت للملازم مراد ؟! .. »**

قال الرقيب مصطفى :

ـ **« نقول له كلنا .. »**

وذهبوا الى خيمة ملازمهم مراد ، وجدوه يعطى اشارة الى (المراسلة) طالبا منه سرعة ارسالها ، فاتحوه فى الموضوع .. فقال لهم بمودة :

ـ **« انه واجب .. وسنشترك كلنا مع أولاد كنانة .. فى أوقات الراحة .. وقد تم ترتيب الأمر مع القيادة منذ وصلنا الى هنا فى أعقاب الغارة .. »**

صمت الملازم مراد لحظة ، أخذ يتصفح وجوه رجاله ، لقد عاش معهم فى السنوات الأخيرة أكثر مما عاش مع اخوته وأسرته،

صار يعرف مشاكلهم ، يشترك فى حلها اذا أرادوا ، وقد صارح احمد الشعرانى أكثر من مرة بأنه يجب أن يعذر حماه ــ والد وفاء ــ فهو رجل تجارة ولا يفهم فى مسألة العواطف .. خصوصا وان الانتظار طال ، وعرض أن يتدخل فى الأمر بصفة أخوية اذا أراد الشعرانى ، لكن التدريبات كانت سرعان ما تشد الجميع الى لهب الشوق الى سيناء ، الى العبور ، لتحطيم كل الكوابيس التى تحول بينه هو وبين الزواج وانجاب أطفال .. اقترح عليهم أن يستمتعوا بما تبقى لديهم من وقت الراحة ... ثم أضاف :

ــ « اتعرفون .. أن أولاد كنانة جددوا الآمال الكبيرة فى وجدانى .. فعندما رفضوا الهجرة .. جعلونى أدرك حكمة التاريخ التى تقول أن سر الأسرار فى شعبنا انه أجاد منذ البداية التشبث بترابه .. بأرضه .. ومن هنا كانت هباته الضارية ضد الغزاة عبر العصور .. »

وقال الرقيب مصطفى بثقة ظاهرة فى نبرات صوته :

ــ « ابنى عاطف يحدثنى عن هذه الأمور كلما سافرت اليهم فى أجازة .. أصله ولد نبيه زى حضرتك .. أحلم له بأن يسافر فى بعثة للخارج .. ويتعلم الذرة .. الفضاء .. أصل المسألة فى دماغى هى ان والدى .. الله يرحمه ــ ظل فى تفتيش البيه حتى مات مثل جدى من غير ذكرى .. لكنه كان قد أطلقنى أنا بعيدا عن التفتيش .. جعلنى أتطوع فى الجيش .. وابنى عاطف لازم يطير لبلاد بره .. يشحن دماغه بالعلوم الجديدة ويرجع يعمل حاجه جديدة .. يخترع شىء كبير .. يخلى الدنيا كلها تقول الحاجة دى عملها عاطف ابن الشاويش مصطفى القطورى .. لكن .. ما هى هذه الحاجة الغريبة الجديدة المهولة ؟! .. لا أعرف وهو وشطارته .. »

نظر الرقيب مصطفى الى الملازم مراد ، وسأله :

ـ « يا ترى ده كثير على ابنى عاطف ؟! .. »

هز الملازم مراد راسه ، وابتسم بمودة ، وقال :

ـ « تعرف يا درش .. زمان فى عهد محمد على باشا .. ظهر شاب مصرى اسمه حسين شلبى عجوة .. كان ابن واحد مثل أبائنا .. من الناس اللى بيحلموا كثير .. حسين هذا هو الذى اخترع آلة ضرب الأرز وتبييضه .. وعمل أول مضرب للأرز فى دمياط .. وفى رشيد .. وكان أول مخترع مصرى .. و .. »

صمت الملازم مراد .. أخذ ينظر الى الأفق البعيد .. من نافذة خيمته .. وغمغم :

ـ « عمرنا مع الأحلام طويل .. طويل .. وربما لهذا نحتمل كل التعب .. »

ثم ربت على كتف الرقيب مصطفى وقال :

ـ « ستتحقق أحلامك لابنك عاطف .. حتما ستتحقق .. والا فلماذا نحن هنا .. لماذا ننحت الصخر والرمال بأسناننا وأظافرنا .. ليل نهار .. اننا لن نكف عن الزحف ولن نتوقف حتى تتحقق أحلامنا و .. »

•••

•••

... شقت الفضاء صرخة امرأة ملتاعة ، فهرولوا خارج الخيمة ، نظروا الى مصدر الصراخ ، اتجهت عيونهم جميعا بقلق الى أولاد كنانة .. وفكر الملازم مراد فى سره :

ـ « أما آن لأولاد كنانة أن يستريحوا يوما ! .. »

•••

•••

كانت أم حميدة ، وطفلتها على كتفها ، تعلن لأولاد كنانة نبأ وفاة زوجها الأسطى سعيد الحلاق ، وتجمع حولها الرجال والنساء والأطفال ، و .. بجوارها كانت وداد صامتة ، واجمة ، مرهقة ، انساها حزن أم حميدة عذاب مشوارهما الى المستشفى والعودة الى اولاد كنانة .. انساها حتى الكلام .. فانحطت على كومة من الهدد .. أسندت وجهها الشاحب الى راحتها ، وظلت تنظر الى الناس حولها ، ثم تعلقت عيناها بالســـماء البعيدة ، حاولت أن تخمن ما يخبئه الغيب لها .. لقد قالوا لها أن أباها على الطواب سيشفى .. سيرى بعينيه لكنها لم تره .. اخبروها أنه نقل الى المستشفى الكبير فى « مصر » و ..

قال الحاج نور الدين :

ـ « العقل والدين يا أم حميدة ! .. »

فصرخ عطية الصعيدى :

ـ « والدراع .. والدراع يا حاج نور الدين ! .. »

وازداد صراخ أم حميدة . لقد نزفت ذراع زوجها الأسطى سعيد الحـــلاق حتى مات .. ربت مرسى العرضحالجى على ظهرها .. واساها وأسلمها لزوجته عطيات لتعنى بها ، ثم انضم الى الرجال ، نظر طويلا الى عطية الصعيدى ، وفى الثوانى القليلة التالية ، تراءت له عشرات الذكريات عن الفدائيين الذين خرج معهم لمواجهة الانجليز فى فايد والاسماعيلية والســـويس وكفر أحمد عبده .. ضربوا وانضربوا .. لكن المسألة كانت كما نطقها عطية الصعيدى بحكمة الفلاح الغويط .. قال للرجال :

ـ « العقل والدين والدراع يا أولاد كنانة .. هذه هي حكمة الأيام العصيبة التى نواجهها الآن .. »

و ..

وصل اليهم الرقيب مصطفى ، مندوبا عن الملازم والجنود .. وقدم تعازيه لأم حميدة ، وجلس مع الرجال ، وجد نفسه مشتركا فى أحاديثهم ..

قال بعشم الفلاح الذى انبتته الأيام العجاف فى ميت‌الشيخ ذات يوم منذ خمس وثلاثين سنة :

ـ « اقدر .. اقول انكم تاخرتم اكثر مما يجب ؟! .. »

نظروا اليه .. انتظروا ايضاحا ، قال :

ـ « مرت ايام كثيرة .. ولم تبداوا العمل ! .. »

قال عطية الصعيدى أ

ـ « كلما بدانا .. انفجر امامنا لغم وسط الهدد ! .. »

وقال الولد حسنى الترزى :

ـ « واللى سافروا للحكومة .. لم يرجعوا لنا بشىء مفيد ! .. »

و .. تذكر الجميع أن ابله ليلى و .. طاهر .. لم يرجعا بعد .. لقد سافرا وعادا ، وسافرا . .وتأخرت عودتهما هذه المرة .. وقال الحاج نور الدين :

ـ « معك حق يا مصطفى .. لقد تأخرنا أكثر مما يجب .. واعتقد اننا يجب أن نبدأ فورا فى ازالة كل الألغام المخبوءة فى الطريق .. هذه مهمة لا تحتمل التأجيل الآن ! .. »

فقال مصطفى القطورى :

ـ « اننا وما نملك من خبرة تحت تصرفكم .. سنكون يدا واحدة باذن الله .. »

...

و ..

فجأة سمعوا صوتا مريبا يقول لهم :

ـ « عندى لكم فكرة رابحة ! »

استداروا جميعا ، فرأوا عبد الودود البقال أمامهم ومعه رجل غريب .. فاندهشوا ، وقالوا فى أصوات متلاحقة :

ـ « المنشار ؟! .. »

تذكر مصطفى القطورى وجه البقال المرابى ، فمنذ رآه مع أطفال أولاد كنانة من أيام بعيدة وهو لا ينسى ملامحه الخبيثة ، التى تذكره بالترزى المرابى فى قريته . علق فى سره :

ـ « يظهر انهم جميعا من طينة واحدة هؤلاء الملاعين ! .. »

وأطبق عطية الصعيدى بأصابعه على ياقة جلباب عبد الودود البقال وصرخ فى وجهه :

ـ « عاوز منا ايه تانى يا وش النكد والخراب ! .. »

فتملص عبد الودود من يديه ، وقال :

ـ « نتكلم بالعقل يا جماعة .. بالعقل .. هه ! »

ثم قدم لهم زميله على أنه واحد من كبار تجار الأخشاب فى البر كله ، وقال :

ـ « نشترى منكم الأنقاض .. والفلوس جاهزة ! .. »

وقف الحاج نور الدين ، ووقف بجواره مرسى العرضحالجى ، وخبطت البنت سميرة صدرها بخوف وقالت :

ـ « يا خرابى .. المنشار حياكلنا ! .

وقال مصطفى القطورى :

ـ « حسب علمى أن أولاد كنانة فى حاجة الى كل الأنقاض لأنهم سيعيدون بناء بيوتهم من جديد » .

نظر اليه عبد الودود ، ثم غمز زميله متخابثا ، فأخرج ما بجيبه من نقود تعلقت بها عيون بعض الرجال وبعض النسوة والصغار .. قال التاجر :

ـ « والبناء .. الا يحتاج الى نقود .. نشترى الانقاض ونعطيكم الثمن نقدا وعدا .. »

وأحس عطية الصعيدى بالدم يضرب فى نافوخه .. شعر بأنه يرهن الفدان من جديد ، أو كأنه سيموت .. سيختنق ، فزعق :

ـ « آه يا كافر ! .. »

ثم عبط عبد الودود البقال وأوقعه على أكوام الهدد وأخذ يفعص فى عنقه ووجهه ، وحاول التاجر أن يوضح لهم الأمر ، لكن خيرزانة مرسى العرضحالجى لسعته على قفاه فهرول مبتعدا وهو يعوى كالكلب ، ثم .. فى اللحظة التالية ، كانت وداد قد جاءت بحبل تيل طويل وجدته معلقا فى بقايا أحد البيوت ، ورأوها وهي تربط به يدى وقدمى عبد الودود البقال بغيظ شديد

وكأنه السبب فى كل ما جرى لأبيها على الطواب وزعقت فى وجهه :

ـ « يا حرامى ! .. »

وهلل الصغار ، وهم يرقبون المشهد امامهم ، بينما تمكن عطية الصعيدى من خرزانة مرسى العرضحالجى ، فانهال بها ضربا على البقال الذى يطمع فى فدانه وفى نهش أولاد كنانة ، ليظلوا عرايا وجياعا بقية العمر .

صفق حسنى الترزى فرحا ، وانتهز الفرصة وربت بيده على كتف البنت سميرة ، وهمس فى اذنها :

ـ « أطلب ايدك من أبوبا مرسى يا بنت ؟! .. »

فلكزته فى جانبه بدلال ، واحمر وجهها الشاحب قليلا ، وقالت :

ـ « ولسانك الأعمى ؟! .. »

ابتسم وقال :

ـ « كل شىء ينصلح حاله يا بنت يا سمره !.. »

و .. انشغلا بالفرجة على عطية الصعيدى الذى صمم على ربط عبد الودودالبقال من رقبته فى جذع شجرة أمامهم .. حتى يتوب الى الله توبة نصوحا ويكتب كمبيالات بالديون الحقيقية وحدها بدلا من الديون والفـــايظ الذى لا يعرف أحـد كيف يسدده ..

وقال مرسى العرضحالجى :

ـ « والله فكرة معقولة جدا .. ما رأيك يا عبد الودود ؟ .. و .. من جهتى أنا ساكتب لك الكمبيالات الجديدة مجانا ..بدون مقابل يا ضلالى ! .. »

فلزم البقال الصمت ، وتباكى بخبث شـديد .. أحس أنه فى مأزق سيقضى على كل أحلامه .. فأخـذ يخبط دماغه فى الطوب ليعثر على حل .. وفجأة لمح الولد حسنى الترزى .. فلمعت فى مخه الفكرة ، لماذا لا يضحك على عقـله .. يستميله بقرشين .. يجعله شريكا له فى تجارة البضائع التى يخزنها لمثل هذه الأيام التى تتوقف أرباحها على شطارته .. لكن هل يوافق الولد حسنى ؟ .. ولم لا .. انه .. وفى هذه اللحظة .. قذفته البنت وداد بطوبة وهى تقول :

ـ « ديل الكلب عمره ما ينصلح أبدا ! .. »

***

كان الرقيب مصطفى القطورى ، فى طريقه الى الموقع يرقب الحقول وشحوب الشمس الغاربة ، وهو يحاول أن يخمن :

ـ « متى يبدأ أولاد كنانة العمل حقا ؟ .. متى يتخلصون من مشاكلهم الكبيرة والصغيرة هذه وينصرفون الى مشروعهم ؟! .. ان البقال المرابى ليس الا لغما من الألغام التى يجب انتزاعها من الطريق .. لكن المسألة لها ذيول طويلة .. طويلة .. فبحور أولاد كنانة كانت غويطة .. وعاصفة بأمواج غادرة خافية تحت السطح .. انها عكرة لدرجة لا يتصورها عقل فى هذا الزمن ! .. »

ومن بعيد ، جاءته مع هبة ريح ، نغمات الناى الذى يعزفه زميله السيد البنهاوى بشـوق جارف الى الحياة ، فاستبشر خيرا ، وقال لنفسه :

ـ الشـدائد ميزة واحدة تجعلها مقبولة .. وهى أنها تصهر معادن الرجال وتجعلهم أشداء فى مواجهة الخطر .. »

وعلت شفتيه ابتسامة وهو يضيف :

ـ « أليس كذلك يا عاطف أفندى ؟! .. ألا ترى أن أباك يجيد الكلام مثلك ؟! .. »

الفصل الثامن

حلم العمر

فى الأيام القليلة التالية ، ازدحمت « أولاد كنانة » بالشبان .. والمعدات .. وقف مرسى العرضحالجى يطل عليهم بجـوار المصلى الصغير على شط المصرف الكبير .. ثم بفـــرح غامر انهى صلاة الظهر ، وأخذ يفكر فى العمل الذى بدأ أمامه بنظام وسرعة ادهشاه كثيرا .

كان منذ سنوات قد ظن ان كل شيء انتهى ، وأنه اضاع سنى عمره عبثا فى الهتاف ضد الانجليز ، وفى ايواء الفدائيين الذين حاربوا العدو فى هذه المنطقة الواسعة المحيطة بالاسماعيلية **والقنطرة غرب ، لكن ها هو يرى املا جديدا يلمع فى صـفحة** الأفق الواسع أمامه ، كان الأمل يتجســـد لعينيه ، من خلال **سحابات التراب التى تصاعدت حول الرجال والشـبان والنساء والأطفال والجنود الذين يزيلون اكوام الهدد ومخلفات الدمار ..** ارتسمت فى مخيلته صورة عريضة .. بعرض الأفق وعمقه .. راى فيها مزيجا غريبا ، له حجم وطعم ورائحة ما يحدث أمامه الآن ، وما حدث منذ سنوات .. بالتحديد يوم ١٦ اكتوبر عام ١٩٥١ .. عندما وجد نفسه وسط مظاهرة دامية قام بها الأهالى .. كانوا يزحفون من قرى « جنيفة » و « الشلوفة » و « فايد » و « كبريت » و « كفر أحمد عبده » .. ويطلق الانجليز الرصاص

.. ولا يتوقف الأهالى .. قلبوا عربات الانجليز و .. دوت المدافع الرشاشة و .. وجد مرسى العرضحالجى أصابعه تطبق على عنق عسكرى انجليزى .. خنقه .. أخذ منه مدفعه الرشاش .. ولم يعرف كيف يستعمله .. جعله مثل الشومة فى يديه ، فتح رأس أحدهم و .. أصيب فى ذراعه .. فى ظهره .. حمله اثنان من الفدائيين .. كان يعرفهما .. اختفيا فى داره بأولاد كنانة منذ شهرين .. جريا به وسط بعض الأهالى .. قفزوا فى عربة جيب لا يعرف مرسى كيف استولى عليها الفدائيان .. فجر أحدهما قنبلة دخان .. وانطلقت العربة .. عبرت الكوبرى والسكة الحديد و .. سمع مرسى العرضحالجى أحد الفدائيين يقول لنفسه .. لزميله .. للأهالى الجرحى معهم فى العربة : « هذا الكوبرى .. وشريطة السكة الحديد .. لا بد من نسفهما » .. ورأوا قوات الاحتلال تنتشر فى كل مكان ، لكن العربة الجيب بأرقامها الانجليزية مرت كالبرق من نقاط التفتيش وعبرت الجسور والحقول و .. وصلت بهم الى « أولاد كنانة » .. كانوا مصابين بالجراح و ...

اقترب الملازم مراد منه ، داعبه باسما :

ـ « فيم يفكر عم مرسى ؟! .. »

قال الرجل وهو مازال غارقا فى ذكرياته :

ـ « أفكر فى الذى حدث .. فى الذى يحدث .. فى الذى سيحدث يا ولدى ! »

.. وسار الملازم مراد بجواره .. وهو يقول له :

ـ « كلنا نعمل ليحدث الذى سيحدث يا عم مرسى .. وسيحدث .. سنجتاح الهول ونخترق الظلمات ونعبر .. هذا شيء قد يبدو للبعض اضغاث أحلام ، لكنه سيحدث .. على أى

صورة ؟ .. لا اعرف .. متى ؟ .. ايضا لا اعرف .. لكنه يجب ان يحدث لنصون ما تبقى من عمر ، عمرنا ، وعمر البلاد كلها »

نظر اليه مرسي العرضحالجى .. نظر اليه طويلا .. الى وجهه الأسمر المستدير ، وعينيه السود اللامعة ، وعنقه المتين، وجسده الفاره المصوص ، وجده صورة من احلامه .. يشبه الولد الذى يريد انجابه : ولد عنيد يحقق ما فشل هو فى تحقيقه ولد يعرف كيف يستعمل المدفع الرشاش .. ويقطع المسافة التى تفصل أولاد كنانة عن قناة السويس وسيناء .. قال :

ــ « ثلاثة كيلو مترات فقط .. تفصلنا عن الحلم يا ولدى .. انها أطول ثلاثة كيلو مترات رأيتها فى حياتى ! .. »

توقفا بالقرب من الذين يزيلون أكوام الهدد .. حط التراب على وجهيهما .. قال مراد :

ــ « ها هو الاختبار يا عم مرسى .. لو انتصرنا هنا فى « اولاد كنانة » على آثار الدمار .. سنكون قد قطعنا نصف المسافة الى حلم العمر .. » .

فقال مرسى بحكمة عمره المديد :

ــ « العراقيل كثيرة يا ولدى »

ابتسم مراد وقال بثقة :

ــ « لا مفر من الصبر ! .. »

قال مرسى : « كان فى مثل عمرك .. كان يلبس أفرولا ازرق .. فى يديه شحم . فى وجهه غضب لا أنساه .. جلس معى هنا .. فى دارى هذه التى صارت اطلالا .. كان معه زميله .. كان اسمه (محمد) .. زميله كان اسمه (وسيم) .. لا انسى الاسمين ابدا .. لأننى سأسمى ابنى المنتظر (محمد

وسيم ..) .. حملانى جريحا مع بعض الأهالى من الاسماعيلية .. ظلا هنا معى أسبوعا .. شهرا .. ذهبا وغابا طويلا ثم عادا .. كانا يعودان دائما الى دارى .. يجلسان هنا .. ينامان هنا .. يفكران هنا دون أن يخشيا شيئا .. وذات ليلة طلبا (مشنات) من التى تحمل فيها نساؤنا البرتقال ، وطلبا جوالا من السمسم .. وجلسا يملآن المشنات والجوال بالمفرقعات والبرتقال و .. أعددت لهما الشاى بنفسى كانت زوجتى المرحومة تحبهما مثل أولادنا .. كانت حامل بالبنت سميرة .. وفى الليل .. ودعانى وخرجا يحملان البرتقال والمفرقعات .. قالا لى : « دعواتك لنا يا عم مرسى .. » وركبا دراجتيهما واختفيا وسط الحقول والجناين و .. صليت الفجر ودعوت لهما من قلبى وعقلى وبشقاء العمر وحلم العمر و .. سمعت صوت قطار الانجليز يدوس فوق قلبى .. قطارات الانجليز تمر من هنا على الدوام بالجنود والسلاح و ..

استدار مرسى العرضحالجى للملازم مراد ، بوجه مشرق بفرح غامر ، وعيناه تلمعان وسط التراب .. واضاف :

ــ نسف محمد .. ووسيم .. قطار الانجليز .. الفرقعة هزت أولاد كنانة عن آخرها .. والنار وصلت لعنان السماء .. رأيتهما من هنا و ..

أخذ الرجل نفسا عميقا ، ملأ صدره ، روى أعماقه .. جدد نشاطه .. خلع جلبابه الصوف القديم ، وركنه على جانب ، وبدأ فى ثيابه الداخلية الطويلة المليئة بالرقع ، مثل عود خيزران صلب طويل .. وتاه من الملازم وسط الرجال والشبان والجنود الذين يرفعون أكوام الهدد و ..

.. .. ..
.. .. ..

فرد الملازم مراد أوراقا أخذ يراجعها مع المهندس المدنى الذى وصل فى الصباح من المحافظة وقال :

ـ « لا يهم أن نبنى بيوتا كاملة الغرف .. يكفى أن يجد كل انسان هنا حجرة بمنافعها وما يلزم مواشيه .. انها مجرد بداية .. والمهم أن تكون محصنة جيداً ...»

لكن المهندس لم يقتنع ، كان يرى أن يكون البناء هنا نموذجا رقيقا وراقيا مثل أحدث المنشآت المدنية فى العالم .. و .. قال الملازم :

ـ « نعرض الأمر على أولاد كنانة .. ونستمع الى مقترحاتهم .. »

***

توقفت سيارة ميكروباس أنيقة بالقرب من أولاد كنانة .. أثارت انتباه البنت وداد .. دق قلبها، توقعت أن تكون المستشفى قد ارسلت اليها جثة أبيها ، « على الطواب » .. لا تدرى كيف ظنت هذا .. ربما لأنها رأت فتاتين تهبطان من السيارة بملابس تشبه تلك التى رأتها على المرضات فى المستشفى .. لكن طاهر افندى الذى هبط من السيارة فى اللحظة التالية ، جعلها تلتقط أنفاسها اذا أدركت ان القادمين هم مجموعة جديدة من فرق الشباب الذين اعتادت رؤيتهم يتوافدون على أولاد كنانة منذ يومين من كل « شكل ولون » ـ على حد قول البنت سميرة ، التى كانت تقف الآن بجوار وداد ، تطلع بدهشة بالغة الى وجوه القادمين وتحاول أن تفهم بعض لهجاتهم وخمنت أن بعضهم من الطلبة العرب الذين يتعلمون مع طاهر أفندى ، فذلك ما قاله أبوها امس ..

كانت عزيزة مختار ، فى بنطلونها الأسود وبلوزتها الحمراء،

وشعرها الطويل ، مثيرة لانتباه البنت وداد .. وهدفا لتعليقات لاذعة أطلقتها البنت سميرة .. وضحكات و .. رغبات .. بعض الشبان الذين يقفون الآن بجوار الولد حسنى الترزى .. كان مع عزيزة فتاتى التمريض ، وعشرة من زملائهن الطلبة ، وبينهم كان رائدهم الدكتور نعيم عطية بوجهه الأبيض الوسيم ، وشعره الذى وخطه المشيب ، و .. قدم طاهر ، أستاذه وزملاءه ، الى الملازم مراد ، والمهندس المدنى وبقية الأهالى ، وردا على تحيتهم ، قال الدكتور نعيم ويده على كتف طاهر :

ـ « هذه ليست بلدة زميلنا طاهر وحـده .. انها بلدتنا جميعا .. ونحن تحت تصرفكم من الآن ! .. »

وظلت وداد ترقب البنت عزيزة واهتمـامها بطاهر افندى و .. حاولت الا تغار منها .. لكنها فشلت فى التغلب على غيرتها .. التى تمزق قلبها و ..

و .. خلال السـاعات التالية ، كانت حبات العرق التى امتزجت على كل الوجوه بالتراب ، قد وحدت بين شبان الجامعة ورجال المحافظة وفرق الاتحاد الاشـتراكى وأهالى أولاد كنانة وجنود المواقع المجاورة .. صـاروا جميعا يدا واحدة لها مائة ذراع .. ألف ذراع .. مليون ذراع وتبـادلوا حمل الفـؤوس والمجارف والغلقان والتراب والطوب والرمل والأسمنت والمواسير وخراطيم وجرادل المياه وامتزجت انفاسهم اللاهثـة بضحكات الأطفال ومرحهم وهم يتسابقون فى تقليد الكبار .. و .. وجرى طفل صغير هو « علاء » شقيق أبله ليلى .. وآخر العنقود للحاج نور الدين و .. تمرغ فى أكوام الرمال التى تنقلها عـربات الجيش ثم .. فرقعت ضـحكات الطفـل « عـلاء » فأضاءت الابتسـامة على الوجوه و .. تبـادلوا السـجائر و .. أخذت البنت وداد والبنت سميرة تجريان هنا وهناك بصينية الشـاى

وبعض الأرغفة الملفوفة بقطع من الجبن القريش .. واكتمل العدد عندما وصلت أبلة ليلى ومعها مندوب الشئون الاجتماعية لاجراء بحث دقيق ونهـــائى على أرض الواقع لأولاد كنانة .. لاعانتهم نقديا وفورا .. وازداد حمـاس الجميع .. واقتربت وداد من عزيزة .. وتعمدت تخيطها بصينية الشاى لكن غيرتها لم تهدأ ..

***

حمل عطية الصعيدى رصة من الطوب الأحمر على كتفه ، وساعده الحاج نور الدين على وضعها بعناية شديدة ، بالقرب من أول قطعة أرض سيبدأ منها البناء الجديد .. لم يسأل أحدهم لمن ستكون الدار الأولى الجديدة التى سيبدأون بها ، لم يقل أحد أنها ستقام على ارضه أو مكان بيته الذى دمر .. لم يتشاحن أحد .. لم يعترض احد .. صاروا جايعا ملاكا لكل شـبر فى الأرض التى بدأت تتسع فى الأجزاء التى نظفت من أكوام الهدد والدمار .. قال عطية الصعيدى للحاج نور الدين :

ـ « تعرف يا حاج .. حاسس ان أولاد كنانة وغيطانها .. بتاعتى .. بتاعتنا كلنا ! .. »

وأقسم الحاج نور الدين ـ منشرح الصدر ـ أنه ولا فى الأحلام يمكن أن يحدث ما يراه بعينيه الآن .. وصـــاح بملء صوته :

ـ « الهمة يا بلد .. الهمة يا اولاد كنانة ! .. »

وتقدم ليعمل بنشاط بينهم ، نقص عمره عشرين سنة .. دفعة واحدة .. وجد نفسه فى الثلاثين من عمره .. يعـاكس ابنته ليلى متمنيا لها عريسا يليق بها ، فضحك مرسى العرضحالجى وقال :

ـ « اذا لم تنجب عطيات ولدا عترة مثل هؤلاء الأولاد .. لا بد أن أتزوجك يا ليلى ليكون ولدى من نسل أبوك نور الدين .. الهمام ! .. .

وضحكت أبلة ليلى وهى تداعب الرجل :

ـ « احذر الســـت عطيـــات .. والا أخبرتهـــا بانك تعاكسنى ! .. » .

***

فى المساء ، ضمهم اجتماع كبير حول الملازم مراد والمهندس المدنى والدكتور نعيم و .. طرحت خطة البناء للمناقشة .. ثم اتفقوا على أن يتم البناء على أساس أن تكون « أولاد كنانة » مدينة دفاعية بالدرجة الأولى و .. أعلن الحـاج نور الدين قرارهم النهـائى وهو واقف بينهم :

ـ « قد تكون أفكارنا هذه مجرد .. احلام .. لكننا نستطيع أن نجعلها واقعا ملمـــوسا بالجهـــد الذى نبذله الآن .. اننا سنستكمل ازالة الأنقاض ونخطط الشوارع والبيـوت والمرافق العامة مع مراعاة انشاء المصانع اللازمة لبلدنا على المدى الطويل و .. »

وقال مرسى العرضحالجى :

ـ « ولنضع فى الاعتبار أيضا انشاء جامعة هنا ، أو على الأقل كلية لدراسة علوم البحار و .. »

وقال عطية الصعيدى :

ـ « واستزراع أراضى القناة من حولنا مسالة ضرورية .. اننا يجب أن نستعد لزراعة سيناء من الآن لنجعلها بحق ارض الأحـــلام .. »

وقال المهندس المدنى :

ـ « المشروع الذى جئت به اليكم يضع فى اعتباره هذه الأحلام ويضيف اليها ايضا : ان يراعى فى تخطيط قرى ومدن المنطقة كلها الطابع الاسلامى لاحياء التراث العربى ، وان يبنى معهدا دينيا وبجواره نقيم مسـجدا وكنيسة ، مع وضـع خطة لتنفيذ مشروع تحسين الحدائق والأراضى الزراعية هنا .. »

وقال الدكتور نعيم ، وقلبه مفعم بالآمال العريضة :

ـ « لا حدود لطموح الانسان فى بلادى .. »

.. استدار الى طاهر ، وعزيزة مختار ، وقال لهما :

ـ « من يسمع أولاد كنانة وهم يحلمون ببلدهم الجديدة قد يضحك استخفافا بهم ، لكنه ان فعل سيدين نفسه بالجهل فى نفس اللحظة، أعنى الجهل بحكمة التاريخ فى بلادنا .. ان الانسان هنا لا يكف عن أحلامه العظيمة .. وهذا هو سر الشموخ الذى نلحظه فى الآثار القديمة ، ونعيشه فى بقاء هؤلاء البشر هنا .. وسط الخطر .. »

***

و .. وسط أكوام الهدد جلست « وداد » وحدها تبكى .. ثم سألت نفسها : « والعمل ؟! .. »

كان انشغال طاهر بالبنت عزيزة يضـــايقها .. يزيد من أحزانها .. يجعلها تشعر بأنها تائهة فى دنيا واسعة .. وأنهـا لا تجد البنى آدم الذى يفهمها .. يحبها .. يضعها فى عينيه .. بحق وحقيق .. فيعوض صبرها الطويل .. ويداوى جراحها التى نزفت دما ولهاثا وعرقا منذ .. علموها أن تلصـق ظهرها بأرض الجناين .. فى الظلام .. وتفتح ذراعيها لكل طامع و ..

.. وبعد اذان العشاء ، لاحظ عطية الصعيدى ، وهو يتجول فى البلد ، أن أكثر من نصفها مازال مليئا بأكوام الهدد والقش وبقايا الأسقف والأبواب والشبابيك والجدران و ..

فقال :

ـ « هى البيوت هنا كانت كثيرة للدرجة دى ! .. »

ثم رأى البنت وداد .. فاقترب منها ومسح دموعها وقال لها : « الصبر طيب يا بنتى ! .. »

و .. قالت له ، أن أباها طالت غيبته .. وانها يتيمة و « ملطشة » و .. خجلت ان تخبره بحكايتها الطويلة مع ابنـه « طاهر » و ..

***

.. وبجـوار الجـامع ، كان الحاج نور الدين ، ومرسى العرضحالجى يتناقشان فى أمر ما .. عندما سألتهما أبلة ليلى .. ومعها مندوب الشئون الاجتماعية :

ـ « أولاد كنانة كان يسكنها ثلاثة آلاف نسمة .. أليس كذلك ! .. »

فقال والدها :

ـ لا .. أكثر يا ابنتى ! ..

وقال مرسى العرضحالجى :

ـ « سكان أولاد كنانة .. يزيدون على الثلاثين ألفا .. على الثلاثين مليونا .. يا ابنتى .. وربما أكثر بكثير جـدا .. انهم بطول الأرض وعرضها » .

و .. صمت الرجل عندما خطرت له فكرة لا تحتمل التأجيل .. انه لم يكن هنا عندما دمرت الغارة البيوت .. وحتى لو كان هنا فلم يكن بامكانه حصر الضحايا بدقة و .. اذن فلا بد من العمل الآن مع أبلة ليلى ومندوب الشئون الاجتماعية فى اجراء حصر دقيق بالخسائر .. و ..

فاجأهم جميعا صراخ رجل كان يعوى كذئب جريح فاستداروا فى اتجاه الصراخ وسرعان ماتذكروا انهم كانوا قد نسوا عبد الودود البقال، منذ ربطه عطية الصعيدى بحبل فى بقايا جذع شجرة و .. هرولوا اليه ، فوجدوا عطية الصعيدى والبنت وداد وحسنى الترزى .. يشبعونه ضربا ، وسمعوا عطية يقول بغيظ :

ـ عاوز تركب الفدان .. تحويشة العمر يابن الـ .. »

وقال حسنى بغضب :

ـ الراجل الأرنؤطى ده .. عاوزنى اتاجر معاه فى السوق السوده و ..

و .. تمكنوا بصعوبة من انقاذ البقال ، لكن عطية الصعيدى ظل يركله بقدمه ، وهو يحكى لهم كيف رهن لديه فدانه و .. سمع طاهر القصة لأول مرة .. وعرف كيف أنه أرهق أباه بدخوله الجامعة و .. لكنه قبل أن يتمالك نفسه ليقول ما أراد قوله لأبيه .. لأولاد كنانة .. كانت عربة فارهة تقف بالقرب منهم ويهبط منها « مختار الأرناؤوطى » وابنه « ماهر » و ..

***

فى اللحظة التالية عرف كل رجل وكل امرأة فى أولاد كنانة أنه يوجد بينهم بنت اسمها « عزيزة » .. وأنها جاءت دون موافقة أبيها وانه سيعلمها أن الفوضى التى عرفتها فى الجامعة لا يمكن أن تجعلها تدوس على كلامه وتتجاهله و ..

كان مختار بيه شـــديد الغضب ، وكان ابنه ماهر متورم العينين ربما من سهره المتصل فى لهوه وعبثه ، وربما لأن اباه .. ضربه بعنف عندما علم أن ابنته عزيزة ســافرت الى أولاد كنـانة مع الولد طاهر .. وكان التوتر يلهب الأعصاب .. لكن الدكتور نعيم رحب بهما بمودة بالغة وقدم نفسه للأب الغاضب بأنه رائد هذه المجموعة من الشباب وأنه ..

لكن مختار بيه وبخه بكلمات حادة أشـعلت الجو وجعلته يزداد تأزما ، فأحست عزيزة وطاهر بقرب وقوع ما لاتحمد عقباه .. بيد أن الملازم مراد ، والمهندس المدنى ، ومرسى العرضحالجى والحاج نور الدين وأبله ليلى .. أحاطوا بالأب الساخط ، وحاولوا تهدئته ، لكن صوتا له رائحة التراب والطين والحرائق والدمار الذى حل بهم ، صاح بغضب هائل :

ـ « هو فاكر نفسه مين يعنى ؟! .. »

واستداروا ، ليجدو عطية الصعيدى ، كان يعتلى كومة الهدد القريبة ، ورأوا الفأس ترتفع فى قبضته ، ولمحوا غضبا مخيفا يلمع فى عينيه .. كان شـقاء العمر كله يهز جسمه النحيـل المصوص هزا ، وصعب التخمين بما سيحدث .. كما أن أحدا لم يلحظ أن عبد الودود البقال انتهز الارتباك الذى حط عليهم ، وانفلت هاربا مستترا بالظلام ! .

الفصل التاسع

العمالقة

كان المقاتل سالم المنصورى يتخفف من بعض ثيابه ، فقد انتهت نوبة عمله .. مع أولاد كنانة .. منذ لحظات ، وتأهب للاسترخاء قبل دوريته فى الحراسة .. لكنه انشغل بمتابعة زميله عبد العظيم البحيرى .. كان يرسم لوحة جديدة .. كانت علبة الألوان مفتوحة بجواره على البطانية .. وكانت الورقةالبيضاء مفرودة .. مليئة بخطوط متداخلة بنظام دقيق .. ولمح سالم فى لوحة زميله البحيرى شبها واضحا بوجه البنت وداد .. شده لمعان عينيها .. همس لنفسه : ((قد يبدو الأمر غريبا للكثيرين الذين لا يدركون معنى وجودنا هنا فى هذه الخنادق .. ان الحب .. الحنين الحب يملأ قلوبنا هنا بآلاف المعانى .. بآلاف الأفكار التى تفور بداخلنا وتكتسب حدتها من مواقعنا فى الرمال وسط الآلات والمدافع والمدرعات والدانات والصناديق وشكائر الأسمنت ..ان هذه الأشياء كلها تشيع دفئا رائعا وساحرا يجعلنا فى حاجة الى التعبير عنه .. أليس كذلك يا بحيرى ؟! ..))

فاجأه عبد العظيم البحيرى بســؤال :

ـ ((هل رأيتها يا ولد ؟ .. كانت مثل ست الحسن والجمال وسط أولاد كنانة ..))

ثم استدار الى زميله سالم بوجه يفيض حبا وحنانا . وأخذ يحكى له عن تجربته طوال اليوم مع الأهالى فى ازالة أكوام الهدد وكيف ان التراب والعرق وانفاس أولاد كنانة قد أعادوه الى أيامه الماضية .. عندما كان يلهو ويلعب فى الأجران والغيطان ويبطس فى الترعة ويعوم وسط البط والأوز و .. قال :

ـ « رأيت كل أحلامى فى عيون البنت وداد ! .. »

.. انتقل البحيرى الى جوار زميله سالم المنصورى ، جلس على حافة فراشه .. اخذ علبة سجائره ، أشعل لنفسه واحدة .. احتفظ بالعلبة قريبة من يده .. وقال :

ـ اسمع يا ولد .. ساحكى لك كيف كلمتها .. وأدع لى .. لاننى ساعطيك تجربة حبى .. لعلها تخرجك من ورطتك فى المسرحية التى لا تعرف كيف تكتبها .. لقد سمعت صوتها لاول مرة عندما سالتنى برقة وعذوبة :

ـ اسمك ايه يا جدع انت ؟! .. و .. وقف البحيرى يمثل المشـــهد بدقة .. وهو يضيف :

ـ نظرت اليها .. الى عينيها .. الى شعرها .. الى وجهها .. جسدها .. حملت عنها غلق التراب الثقيل .. قلت لهـا : اسمى عبد العظيم البحيرى يا صبية .. ضحكت .. الله أكبر على رنة ضحكتها وسط الخراب والهدد .. كانت كمن يأمر الدنيا كلها بالاشراق وسط بحور الظلمات .. وظللت بجوارها .. املأ لها الغلق وأحمله بدلا منها وأسير بجوارها ، أعطتنى كوبا من الشاى عرفت أن اسمها وداد .. وأنها غير متزوجة .. غير مخطوبة .. باختصار .. هى خامة تجنن .. وسأجرب حظى معها و .

صمت البحيرى ، وأسرع الى لوحته ، عاد بها بين يديه . ظل

يتأملها بشوق جارف .. ثم أشعل لنفسه سيجارة أخرى من علبة زميله سالم .. قال :

ـ « زمان .. حبيت بنت زميلتى فى تفتيش البحيرة .. كانت تشبه لوداد .. كنا صغيرين .. كنت شقى جدا جدا .. لكن وداد هى ضرس العقل اللى طلعلى فى ولاد كنانة ! .. »

و .. صمت لحظة .. دخن نفسا طويلا من سيجارته وقال لزميله بفرح شديد :

ـ تأمل يا ولد هـذه النمـاذج البشرية الصادقة .. واكتب عنهم .. بدلا من تلك التمثيليات الفارغة التى تصدع بها رأسى!..

ضحك سالم .. أشعل لنفسه سيجارة وقال :

ـ « ألم تقل من قبل ان مسرحياتى تعجبك يا ولد !.. »

ضربه البحيرى مداعبا على دماغه .. وقال :

ـ « يابنى افهم .. مسرحياتك ينقصها شىء .. شىء ما .. ما اسمه .. ما لونه .. ما رائحته ؟! لم أكن أعرف .. كنت أظنه يرجع الى أنك تعلمت شيئا غير صحيح فى معهد التمثيل .. لكننى الآن أقول لك بكل ثقة .. انك فى حاجة الى حب .. حب يزلزل كيانك ويجعلك تغوص فى أعماق تجربتنا الفريدة هنا .. وعندئذ ستكتب ما لم يكتبه أحد .. حتى ولا شكسبير الذى صـدعت رأسى به ! .. »

داعبه سالم المنصورى :

ـ الحمد لله أنك لن تكون ناقدا مسرحيا .. »

وضحكا .. وأكلا بعض المعلبات .. وأعد البحيرى كوبين من الشاى وعادا يدخنان .. وبعد دقائق كان البحيرى قد انشغل فى

اتمام لوحته عن وداد .. أولاد كنانة .. فأخرج سالم المنصورى دفتره وأخذ يكتب رسالة الى خطيبته « أمنيه » .. كان شديد الشوق اليها :

ـ « أمنيتى الغالية .. تعرفين أن أشواقى اليك تزيد مع مرور الثوانى والدقائق .. ولن أحكى لك مرة أخرى عن ضرورة الصبر .. لأننى أكتب لك الآن متعجلا اخبارك وأخبار مسرحيتى التى تركتها لك فى زيارتى الأخيرة .. هل وجدت قبولا من صديقنا المخرج التليفزيونى ؟! .. وأنت ما هى آخر أخبار دراستك فى كلية الهندسة .. ؟ .. على فكرة .. أنا الآن فى موقع قريب من « أولاد كنانة » وهم مجموعة من « البشر العمالقة » .. تصورى انهم رفضوا الهجرة بعد أن دمرت بيوتهم فى احدى الغارات .. وهم مصممون على اعادة بناء بلدتهم من جديد .. ليتك كنت هنا يا امنيتى الغالية .. انها تجربة فريدة حقا .. وسأحاول أن أجعلها بعدا جديدا فى مسرحيتى الجديدة التى أريد ان اعبر من خلالها عن حكاية الناس .. حيث يجتمع الحب والحنان والرغبة فى وجدان الانسان هنا .. أتعرفين يا حبيبتى أنه توجد علاقة وثيقة بين أحلامى فى الخندق وبين ملامح الألم على وجهك لحظة الوداع ، وبين الدموع الصامتة فى عينى أمى .. ان الجرح الدامى بداخل كل منا هنا وهناك .. يلهب قلوبنا بحماس غريب .. ونحن فى مشاريع التدريب .. المهم .. سأحكى لك الآن عن شخصيات مسرحيتى الجديدة «العمالقة» وحاولى أن تتخيلى معى خشبة مسرح كبير جدا تتسع لعدد من الجنود والأهالى .. وانهم جميعا يعملون ويعرقون .. لاكمال التدريب من ناحية ولبدء بناء أولاد كنانة من ناحية أخرى .. وكما تعلمت فى معهد التمثيل سأحاول أن أسجل الآن ملامح كل شخصية .. أو أعد لكل شخصية ملفها الخاص .. وسنرى فيما بعد كيف تنمو العلاقات الانسانية بينهم .. وهذه هى الشخصيات :

١ ــ منير : يحلم بأن يعمل معيدا بالجامعة .. حاصل على الماجستير فى علم ادارة الأعمال .. الابتسامة لا تفارق شـفتيه وعينيه وصوته أيضا .. يحظى بثقة الجميع فى الموقع .. نحيف لكنه صلب .. خلاصة رأيه إننا يجب أن نكون نموذجا لرجـال الاجيال القادمة .. لذلك فهو يختلف معنا كثيرا حول تصرفاتنا . مثلا لا يعجبه العشق المجنون الذى يربط بين زميلنا محمـود القناوى وصديقته المهاجرة « سهير » .. كمـا لا يعجبه اصرار زميلنا أحمد الشعرانى على كتابة خطاباته العنيفة الى خطيبتـه « وفاء » ويرى أن المواجهـة .. مهما تكون مخـاطرها . هى الأسلوب المناسب لحل كل المشاكل .

٢ ــ سيد البنهاوى : عازف الناى الذى حدثتك عنه كثيرا. وهناك جانب آخر كنت اخجـل من ذكره لك .. انه لا يكف عن عشقه للنساء .. وكانما هو قد خلق ليتكفل بمنح نسـاء الارض الحب و .. الاخصاب .. وله ذكريات كثيرة ومثيرة ومخجلة .. عن علاقاته بصديقاته فى قريته التى نشأ بها .. وفى القاهرة التى يعمل بها موظفا فى احدى شركات المقاولات .. وهو دائما يحب الاستماع الى حكايات زميلنا « محفوظ الفيومى » الشاعر الحالم والمحلق دائما فى عشقه للمصريات القديمة .. وأيضا زميلنا الذى سافر الى أوربا .. وسأحكى لك عنه حالا .. اسمه :

٣ ــ حبشى : وهو نموذج وحيد وفريد حقا بيننا .. تصورى انه فى عز التدريبات والجـرى والزحف تحت وابل الدانات والدخان والأسلاك الشائكة و .. نجده أنيقا على الدوام .. حليق الذقن .. الثياب والألفاظ .. ويداعبه زميلنا البنهاوى بقـوله ان حبشى .. هو منـدوب أولاد الذوات فى موقعنا .. بقى ان تعرفى أن حبشى يجيد عدة لغات أجنبية ، رغم أنه لم يتم دراسته لأسباب كثيرة منها أنه ورث فى وقت مبكر رصيدا هائلا فى البنك

وسيارة خاصة .. وترك دراسته باحدى المدارس الأجنبية فى مصر و .. سافر كثيرا الى أوربا لزيارة شقيقه الأكبر وعمه المقيمين فى باريس .. ولذلك فهو يحكى لنا كثيرا عن مغامراته المثيرة فى اندية الليل .. والمشهد المعتاد بيننا هو أن سيد البنهاوى يجلس بجواره فى أوقات الراحة ويستزيده من حكاياته مع فتيات أوربا .. ولا تدهشى اذا قلت لك ان حبشى والبنهاوى .. رغم شقاوتهما هذه .. من أبرز « النشنجية » فى كتيبتنا .. بكل فصائلها وسراياها .. وقد حصلا على ترقية استثنائية لبراعتهما فى اصابة العدو فى أحد الاشتباكات .

٤ ـ فضيلة المهندس هناء عبد السلام : وله مواقف طريفة معنا .. ففى البداية كنا نداعبه بسبب اسمه .. الشائع بين الفتيات .. لكننا ما لبثنا أن كففنا عن هذا (السخف) خاصة لانه كان جادا فى سلوكه . محترما فى تصرفاته .. كما أنه يحفظ القرآن الكريم ويروى لنا عن بطولات جند الاسلام فى حروب الفتوحات العظيمة .. ويؤم المصلين منا فى كل صلاة . واعتدنا ان نناديه بفضيلة الباشمهندس «هناء عبدالسلام» و .. على فكرة .. ايتها الغالية هو كان يعمل فى آبار البترول فى «بلاعيم» فى سيناء الغالية ولديه ذكريات مؤلمة عن وقوعه مع زملائه المصريين فى الأسر عام ١٩٦٧ .. ولا يكف عن الحديث عن رغبته الشديدة فى العودة الى البئر بعد تحريرها باذن الله .

٥ ـ عوضين الحنك .. ونسميه « العملاق » . . ظل وقتا طويلا يحدثنا عن حلمه ذات يوم بأن يكون ضابطا ، لكن حظه جعله مدرسا .. ثم أعلن انه قد احبنا ولا داعى لأن يغامر بفقد صداقات غالية و .. أهم ما يميز عوضين الحنك ، أنه يرى اسمه علامة من سوء الحظ ايضا ، ويحدثنا عن نظرية طريفة فى تجديد الأسماء « المكعبرة » فى رأيه والتى يجب أن تستبدل بسماء

انيقة ولطيفة .. يحلم عوضين الآن بأن يكون جسمه الفارهالعملاق صاريا لعلم مصر يوم نعبر باذن الله .. فهو طويل بشكل ملحوظ .. وعلى فكرة .. عوضين متزوج وله ابنة حلوة اسمها « رشا » كثيرا ما يرينا صورتها ويحكي عن شقاوتها .. و .. له تجربة مرة في حرب ١٩٦٧ وعندما تم استدعاؤه منذ فترة ترك عمله كمدرس ثانوي . وجاء الينا صامتا في البداية ثم حدثنا عن رغبته في الثأر لأصدقاء ظرفاء مثلنا ــ كما يقول عادة ــ كانوا معه ذات يوم في .. سيناء و .. كثيرا ما يقول : « نفسي أشوف علم مصر وهو بيرفرف .. يرفرف .. فوق خط بارليف ، أكيد انه سيرفرف بشوق العطشانين للهوا من ألف مليون سنة ! ..

٦ ــ **سمير مرقص** : نداعبه بمشاكل حبنا على الدوام .. ونسميه (طبيب القلوب) فمن يصاب بزكام يقول له : ان ذلك بسبب الحب يا دكتور سمير .. وهو شخصية لطيفة جدا . . تخرج هذا العام في كلية الطب . اسكندراني اصلا .. مرح .. .. اعتدنا مواعظه واحببنا أكلة السمك المشوي التي كان يحملها كلما عاد من اجازة ، ويكتفي بالابتسام عندما يحدثه زميلنا حبشي عن بعض فتيات الاسكندرية وكيف انهن أجمل بكثير من بنــــات أوربا .. ويحـــــرص سمير على حمل مســـــبحته الأنيقة و .. والترانزستور لمتابعة نشرة الأخبار .. وقد قام طبيبنا ســـمير بدور كبير في اسعاف أولاد كتانة يوم الغارة ، فعيادته الميدانية مليئة باللازم دائما .

٧ ــ **السيد الصامت** : واسمه بهاء .. له ملامح رقيقة .. شاربه ما زال بكريا .. لم يحلقه بعد .. رجولته تعلن عن نفسها في صوته الخشن .. ونظراته الصلبة وسر صـــمته الدائم انه شقيق فنانة كبيرة وقد حاولت هذه الفنانة كثيرا أن تنقله الى عمل مكتبي بعيدا عن الميدان لكنه رفض و .. وبخها .. ومع ذلك فهو

لا ينجو من تعليقات الزملاء .. وتدريجيا اعتاد هو ذلك وأدرك أن الحب الذى يجمعنا هنا أقوى من أى شىء فى الوجود « كان ذلك يوم أصيب بمرض خفيف ووجدنا جميعا حول فراشه نسهر على راحته فبكى وقال : « كل شىء ذاب بداخلى الآن .. انتم لا تعرفون ما يحدث فى بعض ليالى الفن التى قدر لى أن أنمو فيها .. ان هذا الخندق هو الآن عالمى .. انتم أهلى » ..

٨ ــ البنت : وهذه الشخصية فى تصورى يجب أن تكون هى الشخصية المحورية ، وهى أيضا الرمز والامل والتجربة .. انها المعجزة المصرية التى يجب أن تكون همزة الوصل الوثيقــة بين هؤلاء الزملاء و .. أيضا علاقتهم التى تنمو الآن بقوة مع أولاد كنانة .. يجب أن تعكس هذه البنت معانى عظيمة لكلمات نتبادلها كل يوم مثل : العرق .. الحب .. الخلاص .. الضــحك .. والعنف والحكمة على فكرة زميلى عبد العظيم البحيرى يكمل الآن لوحته الجديدة عن بنت اسمها وداد . انها فى وجدانه تساوى أشياء غالية .. لا يعرفها الا من يعيش معنا هنا فى هذه الخنادق .. حيث يكفى جدا أن تكون كلماتنا احيــانا مجرد نظرات او ايماءات او اشارات ، ان تصرفاتنا هنا وثيقة الصلة بقيمة الأسلحة والذخيرة والرمال و .. قناة السويس القريبة منا الآن .. ان حياتنا هنا فى جملة واحدة هى أن البشر هنا فى البوتقة .. يتخلقون .. وفى ايديهم يتشكل الأمل القادم .. يتخذ صورته ببطء .. لكن بكل الصدق .. و .. أيتها الغالية .. ان ثمــة تجربة رائعة .. مثيرة .. فى انتظارنا هنا وعلينا أن نستعد لها »

***

أقبل الرقيب مصطفى وهتف محييا ، ثم قال :

ــ استعدا يا منصورى انت والبحيرى .. نوبة الحراســة اقترب وقتها .. »

وانصرف الرقيب مصطفى ، كان مهموما .. لا يدرى لماذا يشعر بأنه لو كان هناك فى أولاد كنانة لحظة حضور « مختار الأرناؤوطى» لضربه علقة ساخنة يظل يحلم بها العمر كله.. ان ثورة مختار ضد ابنته عزيزة وزميلها طاهر واستاذهما الدكتور نعيم لم تعجبه، جعلته يثق فى أن «مختار بيه» ماهو الا واحدا من بقايا سلالة الأرناؤوطى الباشا الذى كان له تفتيش زراعى يضم قريته وأهله ومصائرهم فى « ميت الشيخ » وغيرها من قرى وكفور . . وداهمته آلاف الذكريات ، فهرب منها بالمرور على نقاط الحراسة فى المواقع ..

***

انهى سالم المنصورى رسالته الى خطيبته «أمنية» بقوله:

ـ « ان الذى يحدث هنا فى أولاد كنانة ، وفى خنادقنا ، أكبر من الخيال .. لكنى أثق فى أننى سأكتب مسرحيتى هذه عنهم ذات يوم .. دعواتك وحبك و .. الباقى على الله .. تحياتى و .. على فكرة اسم المسرحية سيكون : « العمالقة » .. .. ما رأيك ! »

.. وألقى عبد العظيم البحيرى نظرة أخرى على لوحته ، أعجبته ملامح البنت وداد ، ومنح نفسه سيجارة أخرى من علبة زميله سالم وقال :

ـ ما رأيك يا ولد .. انها شريكة مناسبة لبقية المشوار .. ثم انهمك فى ارتداء ثيابه .. هو يقول :

ـ على فكرة يا سالم .. فكر فى الموضوع ، وستجد أنه سيكون مسرحية عظيمة .. ولو أضفت اليه شخصية عبيطة مثل « مختار بيه » فستكون المشاهد ساخنة ! .. »

فقال سالم المنصورى :

ـ « الحقيقة اننى لا احترم هذا « المختار بيه » .. لقد كان وقحا فى حديثه الى ابنته عزيزة والدكتور نعيم .. »

وصعدا من خيمتهما فوق الخندق العميق ، ســـارا على الرمال وسط الصناديق والدشم والخنادق . وضحكا عندما رأيا « مختار بيه » بجسمه السمين ، وسط عزيزة وشقيقها ماهر ، وزميلها طاهر ومرسى العرضحالجى والحاج نور الدين والدكتور نعيم ، كانوا أمام خيمة الملازم مراد .. يتناقشون .. غمز سالم المنصورى وقال :

ـ **« بيه سمين قوى .. مختار أفندى ده ؟! .. »**

ابتسم عبد العظيم البحيرى وقال :

ـ « طابور واحد على يد درش العجيب .. يذيب لحمــه وشحمه وفكره الرجعى ويخليه بنى آدم » .

وضحك سالم وقال :

ـ **« والله فكرة ! .. »**

وتذكرا معا كيف أرهقهما الرقيب مصـــطفى فى تدريباته العنيفة على أصول المصارعة وتضاحكا !.. »

طال النقاش فى خيمة الملازم مراد ، لكنه لم يفقد أعصابه .. ظل ودودا معهم ، باسما كعادته . واســـتدعى الرقيب مصطفى لثقته فى حكمته ، وفجأة قالت عزيزة :

ـ من يسمعك يا أبى يظن اننى هربت منك الى اسرائيل ! .. اننى هنا فى بلدى .. مع زملائى .. مع استاذى .. مع النــاس الذين رأيتهم بنفسك لا يحلمون الا ببناء بيوتهم ليقولوا للعــدو اننا مازلنا أحياء .. اقوياء .. فهل انا كفرت ؟! » .

نهض والدها ساخطا وقال :

ـ « كل قوانين الأرض معى اذا امرتك الآن بالعـودة الى البيت .. هيا بنا .. »

لكن المفاجأة التى جعلته ينحط على مقعده مذهولا جاءته من ابنه « ماهر » الذى قال بصوت يعكس خوفه وعناده ورغبته فى آن واحد :

ـ « سأبقى هنا مع أختى ! .. » فرحت عزيزة ، عانقت أخاها ماهر .. وشد طاهر على يديه بفرح غامر ، وعلت البسمة وجوه الجميع وأراد الدكتور نعيم أن ينهى المشكلة فقال للأب الغاضب الشاحب :

ـ أظن يا مختار بيه ، تستطيع الآن أن تطمئن على عزيزة التى ستكون فى رعايتك المتمثلة فى ابنك ماهر .. وهكذا تكون قد أسهمت بجهد مضاعف فى المشروع .. وهذا نبل منك .. ! »

نظر اليه مختار بيه بحذر وضيق شديدين ، رآه يحبك من حوله الحصار ، ولا يترك له فرصـــة للتراجع ، و .. ضحك ساخرا .. ان المسألة ليست هينة كما يتصورون ، انه فى قرارة نفسه يرى انهم يعبثون ، وقد مل التظاهر بالوطنية على طريقة هؤلاء الناس ال .. بعد أن فقد العزبة بفداديتها الكثيرة ، وضاعت كل أحلامه فى أيام العز والبعثرة التى عاش يحلم بها العمر كله .. قال :

ـ لا يا دكتور .. انكم جميعا مخطئون .. ان أولادى دخلوا الجامعة ليتعلموا ثم بعد ذلك يخدمون بلدهم بطريقة تليق بأحلامى لهم .. أما هذه الأعمال التى تحرضهم عليها فهى اعمال طائشـة لم يخلق لها أولادى أنا ! » و .. تحدث الملازم مراد .. أراد أن يزيل الغشاوة عن عينى مختار .. أن يوقظ وطنيته .. قال :

ـ « اننا فى حرب مع عدو شرس .. تدعمه جهود كل فرد هناك وتساعده جهات وهيئات مختلفة رغم أن هدفهم جميعا هو العدوان علينا هنا .. وأعتقد أن كلا منا يعرف مسئولياته و..»

قاطعه مختار بحدة :

ـ « أظن أنك تتوقع منى أن أوافقكم على هذا العبث ، وربما يذهب بكم الخيال الى أنني سأعمل معكم وأتبرع لكم بأموالى أيضا .. لا ياسادة .. انتم واهمون ! »

و .. صدموا .. كانت لهجة مختار قاسية مليئة بحقد أذهلهم وأسكتهم برهة طويلة مشحونة بالقلق . لكن مرسى العرضحالجى اقترب منه ، واجهه تماما .. كان أطول منه ، شامخا ، فأطل عليه من فوق بنظرة فيها اشفاق وقال بصوت حرص على هدوئه :

ـ هل انت مصرى حقا يا سيد مختار ؟! ..

و .. حاول مختار أن يرده بغضب أشد ، لكن مرسى كان أسرع منه ، أسكته برفع أصابعه السمراء المعروقة المعفرة بالتراب محذرا .. وقال :

ـ « من فضلك .. اننى لم أتم كلامى بعد .. اننا كنا منذ سنوات طويلة نعانى من أبيك .. الأرناؤوطى باشا .. ربما تذكر انه ربطنا عشرة من رجال البلد فى حبل طويل واجبرنا خفراؤه على السير عراة فى مياه الترعة الكبيرة .. فى مواجهة الموج والضرب والطين والبرد .. ظللنا هكذا ثلاثة أيام بلياليها .. اتعرف ماذا كانت النتيجة ؟! .. لقد مات بعضنا .. وذهب ابوك الباشا .. وبقينا نحن هنا .. هل تفهم ما أقوله .. أم انك فى حاجة الى مزيد)! .. » .

طال صمت مختار .. ازداد شحوب وجهه السمين .. صرخ فيه الحاج نور الدين :

– أريد أن أعرف كيف ولماذا ترفض يا رجل أن يكون لك ولد وبنت بهذه الصورة المشرفة ؟ .. انهما وطنيان يستحقان الاحترام .. أما انت ؟! ..

أسرع الملازم مراد يهدىء من ثائرتهم ، وقد لاحظ أن الأمر يتطور بشكل ينذر بالخطر ، قدم لهم أكواب الشاى .. والسجائر وطال الصمت حتى قطعه الرقيب مصطفى القطورى .. مستئذنا ملازمه :

– لتسمحوا لى بكلمتين .. ان ما يجرى هنا الآن شيء صحى تماما .. اننا جزء من البلد .. وما أكثر المشاكل هنا وهناك .. لكنها غير مخيفة ما دمنا نملك حرية المناقشة هكذا .. واما مشروعنا فى اولاد كنانة ، فنحن اغلبية معه .. ولا يوجد سوى معارض واحد . وحتى هذا المعارض ليس مشكلة .. فمن السهل اقناعه ، واما ان يبقى معنا ، واما أن يهرب كما هرب عبد الودود البقال .. فما هو رأيكم ؟

سأل الملازم مراد :

– ما هى اقتراحاتك يا عم مصطفى لترضية مختار بيه ! ..

قال الرقيب مصطفى باسما :

– « لدى اقتراح واحد .. »

نظر اليه مختار ساخرا وقال :

– « انني أسمعك .. ماذا تريد ؟! .. »

قال درش :

– « أرجو أن تظل معنا هذه الليلة فقط .. سنتشرف

بوجودك .. ومن يدرى فربما اقنعك ما ستراه يحدث هنا فى « أولاد كنانة » .. بأن ابنك وابنتك لم يخطئا .. هه .. ما هو رأيك ؟! .. »

فكر مختار قليلا .. لقد كسب من قبل عدة قضايا صعبة من خصومه ، واقتراح هذا الرقيب تحـد له ، لذكائه ، وسيقبله ليثبت لهم جميعا انه على صواب ، وانهم مجانين اذا تصوروا أن باستطاعتهم اعادة بناء بلدتهم ، بل انهم يعيشون فى وهم كبير ! .. قال لهم بعناد :

ــ « سنرى ! .. »

ورحب به الجميع ضـــيفا فى أولاد كنانة ، واسرع طاهر وعزيزة وماهر ليشاركوا زملاءهم فى ازالة بقايا آثار الدمار .. وبعد قليل لحق بهم مرسى العرضحالجى والحاج نور الدين والدكتور نعيم .. وغير بعيد عنهم كان مصطفى القطورى يسير مع ضيفه مختار بيه و .. مرا بعدد من نقاط الحراسة .. لمحهما عبد العظيم البحيرى ورآهما سالم المنصورى و .. فى تجوالهما المعتاد أثناء نوبة الحراسة .. تبادلا الضحكات ، وقال البحيرى :

ــ تراهنى ! .. سيعلمه درش أصول المصارعة الحرة ! ..

وقال سالم :

ــ « سيكون مشهدا مفجرا الضحك بين فصول مسرحيتى الجديدة .. »

***

وبين أكـوام الطوب .. اقتـربت وداد من البنت عزيزة وابتســـمت لها من قلبها .. ارادت أن تقول لها أن الجندى

عبد العظيم البحيرى كلمها .. وأنه حمل عنها حملها من الهدد .. وانه همس فى أذنها بكلام الحب وانها لم تعد فى حاجة الى طاهر .. فلتهنئى به يا عزيزة ولتهتمى به فهو ابن حلال ويستحق كل الخير برغم نسيانه عهد الغرام فى أرض الجناين و .. ارادت وداد أن تقول كل هذا وأكثر منه لعزيزة .. لكنها اكتفت بالابتسام لها بمودة .. وأخيرا قالت لها :

ـ « أبوك البيه غلطان ! .. »

سارتا متجاورتين ، وتعاونتا فى حمل بعض آثار الدمار ..

الفصل العاشر

فى موقع الحراسة

اقترب الليل من آخره ، انكمشت أكوام الهدد ، واتسعت المساحة التى نظفت من الدمار .. اقترح طاهر أن يجلسوا قليلا ليتناولوا طعام العشاء واحتساء الشـاى .. وافق الجميع .. وانشغلت وداد وأبلة ليلى والبنت سميرة و .. عزيزة مختار فى توزيع الطعام الذى حمله عدد من الجنود الى « الانفار الشغيلة » كما سماهم عطية الصعيدى .. وطالت فترة الراحة ، أحست عزيزة أن التعب سيسلم الجميع للنوم فصفقت بيدها و .. غنت :

ـ « بلدى يا بلدى .. وأنا بدى أحرر بلدى .. » فزغردت وداد وسميرة بمرح ..

وتدريجيا شاركتها الأصوات واحدا بعد واحد .. وببطء توحدت أصواتهم فى مزيج عميق عريض . اختلطت فيـه نبرتهم برائحة التراب والطعام والشاى والسجائر وهمسـات الليـل ووشوشات الأرض و .. سالت دموع « ماهر » فانكمش بجوار أخته عزيزة ، اسند راسه المتعب على كتفها ، تمنى لو ظل يبكى حتى يغتسل من عبثه واستهتاره طوال الشهور الأخيرة ، ربتت عزيزة على رأسه وقالت له :

ـ كنت رائعا يا ماهر .. رفعت رأسى بين الجميع ، جعلتنى أتأكد اكثر اننى على حق ! .. »

تمنى ماهر أن يحكى لأخته عن .. كل ما فعله ، ليتخفف من آلامه ، لكنه تردد ، كان شريط الذكريات مليئا بالأخطاء ، وجوه بنات الليل فى كباريه شارع الهرم . فى احدى سهراته الحمراء فى الاسكندرية فى الصيف الماضى . كان فى ثياب البحر يلهو مع صديقته المطلقة .. كانت فرحة بتحررها من قيود زوجها الذى نعتته بشتى الألفاظ البذيئة . قالت له وهما نائمان على رمال البلاج فى المنتزه انها كانت تكره زوجها ولكنه صدمها بقوله انها كانت تخونه ، نظرت المراة الى ماهر بخبث وقالت له بصوت مغلف بفحيح شره :

ـ « لو رضيت أن تتزوجنى .. أعدك بأن أكون مخلصة لك مدى الحياة ! .. »

ضحك ماهر بمجون وضربها على مؤخرتها البارزة من المايوه الصغير ، وقال :

ـ « انت لا تصلحين للزواج .. صدقينى ! .. »

تصنعت الغضب ونهضت وهرولت تجرى فى حدائق المنتزه ، فى اتجاه « السلاملك » .. جرى خلفها .. لم يكن يرغب فى الاعتذار لها ، كان فقط يريد قضاء أجازته معها بغير مشاكل .. أخذها وصعدا الى غرفتهما فى صمت .. و .. فى الفراش وعدها ببحث مسألة الزواج منها ثم .. عادا الى البحر ، ولفتا الأنظار اليهما بتصرفات ممجوجة امتزجت بصوتها الذى أخجل النساء والرجال من حولهما ، و .. للحظة خاطفة تراءى وجه أخته عزيزة له ، على صفحة البحر ، مضيئا شامخا وسط الأمواج ، كانت تصفعه فى فناء بيت الطلبة يوم تحدث بابتذال مع الدكتور نعيم واعترض على بروفات المسرحية الوطنية ، أغمض عينيه وغطس فى البحر عدة مرات وبصق الماء المالح من فمه و .. فتح عينيه

فصدمتا بجسد صديقته اللعوب التى تدعوه لمضاجعتها فـوق الأمواج و .. حاصرته آلاف الأحداث .. ابوه مختار فى شـقته السرية بالزمالك مع هذه الصديقة المطلقة ، اصدقاؤه ــ العايشون فى الكباريه و .. زملاء آخرون جادون يناقشونه فى فناء الجامعة عن البلد .. عن الحرب .. استاذه الدكتور نعيم يوبخه لاصراره العجيب على الانحـراف .. صرخ فيهم :

ــ لا اؤمن بالمظاهرات .. انها فوضى .. لـكم دينكم ولى دين ! ..

قالت عزيزة :

ــ «لكل انسان وسيلته فى التعبير عن غضبه ! .. »

قال الدكتور نعيم :

ــ لابد من وسيلة معقولة للتماسك ..

شوح ماهر بيديه فى وجوههم ، قال ساخرا :

ــ « انا لا افهم شيئا .. ولا اهتم بشىء !.. »

طارده صوت طاهر :

ــ « انقذ نفسك على الأقل ! .. »

يومها التقى بهذه المرأة اللعوب رآها فى شقة زميله ، اتفق معها على السفر الى الاسكندرية ، شدته باغراء و .. وقعا فى الماء .. غمرتهما الأمواج ، نهضا لاهثين ، كان صوت عزيزة أخته يطارده :

ــ لكل انسان هدف .. حتى المتسولون لهم هدف .. أما انت يا ماهر .. انك ضائع .. ضائع !

صاح بملل :

ـ « كفى وعظا .. كفى ادعاء .. » لكن صوته ذاب في ضجيج الموج الهائج .. و .. رفعت الرايات السوداء على البلاج وطاردهما الحارس بصفارته حتى خرجا و .. تاها وسط أشجار المنتزه الشامخة الصامتة . و ..

قال ماهر :

ـ أتعرفين يا عزيزة .. لقد كنت أنتحر في كل لحظة عبث أمارسها ، كنت أقتل نفسي يوما بعد يوم ، كنت يائسا ، منسحقا .. كنت لا شيء ! .. »

.. اكتشف ماهر أن صوته لم يخرج من شفتيه ، كان الجميع يغنون :

ـ « بلدى يا بلدى .. وانا بدى أحرر بلدى ! .. »

ارتفع صوته معهم ، حاول أن ينسى أحزانه القاتلة ! ..

***

في ركن بعيد ، خلف دائرة الساهرين ، كانت البنت سميرة تجلس بجوار الولد حسني الترزي فوق كومة من الهدد ، كان يحدثها عن البيت الذي سيبنيه لها ، وعن جهاز الفرح الذي سيشتريه والدولاب الذي سيمتلىء بالفساتين الجديدة .. ضحكت البنت سميرة ، دق قلبها ، قالت :

ـ « وابويا ؟! .. »

قال : « حيوافق طبعا ! .. » . و .. تمنى ان تمنحه قبلة .. قبلة واحدة تبل عطشه ، فضم يديه على يديها ونظر الى عينيها

العسليتين ووجهها المستدير المليح .. وزعق مع الذين يغنون ويرقصون :

ـ « **بلدى يا بلدى .. وأنا بحبك يا بلدى ! ..** »

و .. فى ركن آخر من ساحة العمل ، كانت ابله ليلى تنظر الى طاهر عطية الصعيدى من بعيد .. رأته يجلس بجوار عزيزة مختار ، ظلت تقارن بين عزيزة وبين نفسها : هى فى الجامعة ، وانا حاصلة على دبلوم المعلمات . لا تفرق كثيرا ، هى جميلة .. عودها رشيق ، وانا سمينة قليلا .. وهذه أيضا لا تفرق كثيرا ، هى تحبه وهو يحبها . هذا واضح من حضورها معه الى اولاد كنانة رغم انف ابيها .. وهنا تفرق كثيرا .. اننى لاحظ لى معه .. و .. رات ليلى وجه الملازم مراد .. كان مقبلا عليها باسما ودودا ، كعادته .. واستعادت التفاصيل الصغيرة لكل ما حدث منه عندما رآها لأول مرة ، اجلسها على مقعده بجوار المهندس المدنى، حدثها طويلا عن مشروع المدرسة الجديدة .. عن اهمية تعليم الصغار ليكونوا أقوياء بالعقل والقلب فى قادم الأيام . لامت نفسها لأنها عاشت سنى عمرها خائفة من الشبان منذ اوصاها والدها الحاج نور الدين الى باب معهد المعلمات وقال لها :

ـ « انتبهى لنفسك ومستقبلك .. واحذرى المفسدين .. »

و .. علمتها الحياة فى بيت الطالبات ، أن تكون أكثر حذرا لنفسها ، وان تتحاشى رفقة بعض زميلاتها اللائى تحلمن بصوت مسموع ، ويكتبن خطابات الحب الملتهبة لأصدقائهن و .. رأت ابلة الناظرة تضرب طالبة ضبطت متلبسة بحالة حب مع أحد الطلبة ، و .. فصلتها من الدراسة .. و .. هربت ليلى من الحب ومشاكله ونسيت أن ترى طاهر جيدا .

كانت الخصومة بين ابيه وابيها طويلة مرهقة .. منذ حصل

ابوها على خمسة افدنة من ارض ــ الاصلاح وحصـل عطيـة الصعيدى على فدان واحد لكنهما تصافيا منذ زمن .. ربما يوم استشهد مراد شقيق طاهر .. ربما قبل ذلك .. يوم ذهب مراد الى حرب ١٩٦٧ ــ او بعدها .. اجتمع الاهالى فى دار عطيـة الصعيدى ونسوا كل الخلافات وظل مرسى المنفلوطى يحدثهم عن الثار وعن الجهاد فىسبيل الله والوطن، وتبادل مع والدها الحاج نور الدين وعطية الصعيدى حكايات وذكريات جهادهم عام ١٩١٨ و ١٩١٩ وكيف طردوا من المعهد الدينى .. كيف فتحوا بيوتهم بعد ذلك للفدائيين الذين حاربوا الانجليز فى السويس والاسماعيلية والقنطرة و .. انشغلت ليلى بمتابعة الحديث .. شدتها قصص عمها مرسى ونسيت ان طاهر كان موجودا .. وانه صار يومها طالبا فى المدرسة الثانوية . و .. بعد سنوات ذهب الى الجامعة قبل ان تنتبه اليه !..

وسمعت طاهر يتحدث مع عزيزة مختار مداعبا :

ــ « على فكرة أنت صوتك حلو .. عذب ! .. »

وسمعتها تداعبه :

ــ « صوتك أحلى وأعذب يا طاهر ! .. »

وسمعت ماهر يداعبهما :

ــ « انتوا حتقفنوا علينا ولا ايه ؟! .. »

وسمعتهم يضحكون و .. ضحكت معهم . وشغلت نفسها بالعمل لتنسى هموم القلب الذى كان نائما قبل أن توقظه نظرة حانية من عينى الملازم مراد .. وكلمة طيبة قالها من قلبه :

ــ « أبلة ليلى .. كنت أريد رأيك فى .. فى مســـألة هامة جدا ! .. »

صمت برهة ، وهو يحتويها بنظرات تفيض حبا وصدقا .. ظلت تنظر اليه وهو يضيف :

ـ « ما رأيك فى هذا المكان الفسيح .. الا يستحق أن نجعله حديقة وملعبا ـ للأطفال ؟! .. »

وافقته بحماس ، كانت دقات قلبها تورد وجهها ، تربك أصابع يديها ، فتشابكت يديها وهى تسير بجوار الملازم مراد والمهندس الذى انهمك فى حديثه عن أهمية العناية بالتنشئة الصحية للصغار .. قال لها :

ـ « أحلم ببيت فسيح للأطفال .. بيت ملىء باللعب .. بالملاعب .. بالأشجار .. بالهواء الطلق .. بالتربية العلمية اننا فى حاجة الى جيل عملاق يا ليلى .. اليس كذلك ؟!..

سألته :

ـ « متزوج ؟! .. »

انها لم تر دبلة الزواج فى أصبعه ، وتعرف بغريزتها أنه غير متزوج ، لكنها ارادت ان تجسم هواجس قلبها .. قال لها مراد :

ـ « كنت ! .. »

فزعت لا تعرف لماذا ؟ .. نظرت اليه بقلق ، أضاف :

ـ كنت سأتزوج لكن ..

وظل وقت طويلا يحكى لها عن خطيبته التى فضلت السفر الى أمريكا فى بعثة ، وعن نشأته وأسرته متوسطة الحال و .. عن أحلامه و ..

***

كان الدكتور نعيم واقعا في مأزق ، كان يجلس مع المهندس

المدنى ، ومرسى العرضحالجى، والحاج نور الدين، كانوا يتحدثون الى فتحى أفندى ـ كما قدمه مرسى لهم ـ مراسل وكالة الأنباء المحلية .. الذى جاء ليغطى هذه التجربة المثيرة ـ كما وصفها ـ فى اولاد كنانة .. كان الدكتور نعيم يتحدث بوصفه مشرفا على الطلبة المشتركين فى التجربة ، وكان فتحى أفندى يسجل كلماته ويعدل نظارته على عينيه فى نفس الوقت ، عندما أقبلت عليهم البنت وداد ، وسألته :

ـ أبويا على الطواب.. حيشوف بعينيه ولا لأ يادكتور ؟!..

لم يفهم الدكتور نعيم شيئا من سؤال وداد .. نظر الى الرجال من حوله مستفيثا .. شرح له الحاج نور الدين المسألة كلها ، قال :

ـ « أصيب والدها على الطواب فى عينيه يوم الغارة .. وليته يعود الينا .. فهو بناء أصيل ؟ .. »

وشرع مرسى العرضحالجى يروى التفاصيل عما حدث أثناء الغارة لفتحى أفندى لكن وداد أسكتته بقولها :

ـ « انت كنت فى مصر ! .. »

فسكت مرسى مغطيا ضيقه بضحكة خفيفة ومضت وداد تروى تفاصيل الكارثة ،، وكيف ان الدم سال بالحفان من عينى **أبيها .. وسألها فتحى الصحفى :**

ـ « وفى المستشفى قالوا لك أيه .. »

قالت وداد :

ـ ما أعرفش .. ما فهمتش كلامهم ! .. »

ثم أضافت :

ـ وعشان كده قلت أسأل الدكتور نعيم ..

استدارت اليه وسألته :

ـ « أبويا حيقدر يشوف تانى يا دكتور ؟! .. »

صمت د . نعيم .. فكر كيف يقول لها أنه دكتور فى علم التاريخ وليس فى الطب . وطال الصمت ، فزعقت وداد :

ـ « أبويا لازم يشوف تانى .. عشان خاطر متبهدلش .. ده أصـــله بنا يا دكتور ولو جرى له حاجة حضـــيع أنا وهو يا دكتور ! .. »

بكت رغما عنها . كانت لا تريد أن تبكى . لا تعرف لماذا .. هل لانها وسط أغراب عنها . أم لأنها خشيت أن يغضب منها عبد العظيم البحيرى .. وتذكرت انها لم تتمكن من مقابلة الطبيب فى المستشفى لترجوه وتقبل يديه ليشـــفى عينى أبيها . فزاد بكاؤها واهتز جسدها النحيل ، فربت د . نعيم على كتفها بأبوة .. وقال :

ـ بكرة الصبح انشاء الله اروح معاكى نزوره فى المستشفى و .. اخذها الحاج نور الدين فى صدره ، اراح راسها على كتفه، مسح شعرها ، طيب خاطرها بكلمات كان يقولها منذ زمن لابنته ليلى .. داعبها بحديث عن الأيام القادمة وعن زفافها يوم يجىء لها ابن الحلال الذى يستحقها و .. أحس فتحى الصحفى بقلمه عاجزا عن تسجيل ما يراه .. فالتقط صورة بالكاميرا لهذه المشاعر الانسانية التى هزته حتى الأعماق .. كان فى دهشة مما يراه ، كان ما يحدث امامه يختلف تماما عما تصوره منذ سمع بالنبأ من أحد أصدقائه فى المنطقة ، فكر أن يتفق مع رئيسه فى وكالة الأنباء على أن يتفرغ تماما لتســـجيل هذه التجربة من البداية للنهاية فى « أولاد كنانة » ، وأخذ يحلم بنهاية رائعة لشـــقاء

العمر .. ولجريه ليل نهار على « الفزبا » الصغيرة من مكان لآخر وراء الأنباء المحلية .. وتذكر زوجته «سناء» وأولاده، والعشرين سنة التى قضاها مندوبا للأخبار من شمال الوادى لجنوبه و .. **قال لنفسه ، سيأتى يوم اكتب فيه يومياتى .. قصة حياتى ، ليعرف اولادى اننى كنت احتمل الكثير من اجلهم .. واننى مشيت رحلة يأس طويلة ، وفى سنوات مريرة ، كنت احس كثيرا بالوهن .. بالألم يعتصرنى .. وكنت اشعر بثقل فى افكارى .. لكننى لم أتخل عن أحلامى ، لم أفقد هدفى وحتما سأنهى متاعبى هنا فى اولاد كنانة .. لا اعرف كيف ، لكن .. كل مايحدث هنا ينبت فى أعماقى آلاف الآمال ، آلاف الأحلام الحلوة .. يجعلنى أمسك بالأيام القادمة فى يدى** .. و .. اسرع الى « الفزبا » ليرسل موضوعه الأول عن أولاد كنانة الى .. وكالة الأنباء .

***

كان مصطفى القطورى قد اكتشف أثناء ثرثرته مع « مختار بيه» انه كان من هواة لعبة الملاكمة اثناء دراسته بالجامعة . فظل يحدثه عن حبه للمصارعة وتفوقه فيها عن ايمان بانها ضرورة لمجابهة الحياة . وروى له كيف أن ابنه « عاطف » فى « ميت الشيخ » قد تعلمها وصار لامعا فى حلبتها بمدرسة الثانوية . وأخذه الحديث الى ما عرفه من أن القدماء المصريين كانوا يهتمون بفنون المصارعة كما تدل على ذلك نقوشهم على المعابد واعترف مصطفى بأنه شخصيا لم ير معبدا فى حياته رغم انه خدم بعض الوقت فى الصعيد ولكنه على ثقة من ان عساكر مصر فى جيوشها القديمة كانوا بارعين فى فن المصارعة والا فما معنى فوزهم الساحق على الهكسوس وفى قيادة الجياد والعربات الحربية و .. تشعب بهما الحديث حتى وصلا الى مكان فى أحد الحقول بعيدا عن المواقع .. بعيدا عن أولاد كنانة ..

و .. فى موقع الحراسة، كان سالم المنصورى مشغولا ببعض

شخصيات مسرحيته ، وبخطيبته «امنية» عندما داعبه زميله عبد العظيم البحيرى ، فى نقطة يلتقيان عندها فى جولة الحراسة ، وقال :

ـ « أنظر هناك .. يظهر أننى سأكسب منك الرهان ! .. »

نظر سالم المنصورى الى حيث أشار زميله .. وخمن أن مصطفى القطورى ومختار بيه يواصلان نقاشهما ، وقال البحيرى بثقة :

ـ « لقد خدمت مع درش العجيب ثلاث سنوات .. وتعلمت على يديه أصول المصارعة ! .. »

قال سالم المنصورى :

ـ « وأنا أيضا أعرفه جيدا ! .

ضحك البحيرى وقال :

ـ « سآخذ منك علبة سجائر بعد نوبة الحراسة ! .. »

وضحكا وافترقا لاستكمال دورتهما حول الموقع ..

وفى الحقل البعيد ، اتفق مصطفى القطورى ومختار بيه ، على أن ينسى كل منهما لحظة ، وظيفته الاساسية ، وأن يعودا الى أيام الشباب الأول ، وأن يلعبا شوط ملاكمة وبعده .. شوط مصارعة لكن بشرط واحد هو أن يكون اللعب كله فى ظل روح رياضية عالية وبعيدا عن المكر والخداع ! .

الفصل الحادى عشر

الخروج من الخندق

التبهت الخطوط الأمامية بطلقات المدافع .. توهجت النار .. زرعت الحرائق فى الجانب الشرقى .. اهتزت الأرض بعنف، اخذ أولاد الكنانة بالمفاجأة .. أسرع الجنود الذين كانوا يعملون مع الأهالى ، الى مواقعهم ، و .. أوقف الرقيب مصطفى القطورى مباراته الحامية ــ فى المصارعة ــ مع مختار بيه ، وجريا الى الموقع وهو يصرخ فيه :

ــ « أسرع .. أسرع ! .. »

جرى مختار بيه عبر الحقوق والطين والزرع و .. وقع ونهض وجرى ولهث وعرق وخاف .. وجلس مرعوبا فى الخندق، لكن الملازم مراد قال له مشـــجعا :

ــ « لا تخف .. انك بين رجال أقوياء .. انظـــر .. انه لا حدود لقدراتنا على البطش ! .. »

ثم .. أسرع الملازم الى جنوده ليطمئن على استعداداتهم القتالية ، فثمة واجب جديد سيصله حتما بالشفرة ، قلبه .. عقله .. كل خلايا جسده و .. نبضه ، وحبات العرق على وجهه الأسمر ، وانفاسه المنضبطة مع مشاعره المتحفزة ، كل ذلك يؤكد له قرب وصول تكليف بالاشتباك مع العدو .. و .. دق جهـاز

الاشارة فى خيمته .. وجاءته الأوامر فأضاءت وجهه ابتسامه طفولية عذبة ، فرح بصدق حدسه ، عرف أنه ــ مع المــواقع المجاورة له ــ قد كلفوا بالعمل لحماية جماعة من الرجال سيعبرون بعد دقيقتين من « مكان ما .. » بقواربهم « الزودياك » الى سيناء لتنفيذ بعض المهام ..

أخذ الملازم مراد يرقب طلقات المدافع المتفجرة شرقا ، ودق قلبه .. كم تمنى لو عبر مرة أخرى الى هناك .. لقد أتاحوا له العبور مرة .. يومها حدث ما لم يمــكن نســيانه .. ارتبك فى البداية ، اختلطت آلاف المشاعر بدمه .. بأنفاسه .. لكنه عندما ارتدى خوذته المموهة جيدا ، وعلق رشاشه بكتفه ، وربط أحزمة القنابل والمفرقعات الأخرى حول وسطه ، ازداد تماسكا ، ازدادت رغبته فى القفز الى سيناء بخطوة واحدة ، كان قد تدرب جيدا على مهمته هناك .. كان يحفظ كل شبر فى رمال سيناء ، فى تحصنات العدو .. أنه من دفعة جديدة .. دفعته تحمل اســم احد الشهداء فى حرب ١٩٦٧ .. لم يلتق بجنود العدو من قبل لكنه ذاهب الى القتلة الآن ، سيراهم عن قرب ، سيغمد أصابعه فى أعناقهم .. صدورهم ، يذيقهم الموت ، سيجعلهم يعلمون انه لا وجود لهم فوق ترابنا .. انضم الى رفاقه ، كانوا الآن درعا صلبا من اللحم والدم والارادة ، اتجهت عيونهم صوب الشرق ، وانطلقوا من بين السواتر على الضفة الغربية ، تركوا القنطرة غرب خلفهم ، حملوا قاربهم الزودياك حملا ، طاروا به تحت ســتارة كثيفة من نيران المدفعية ، هبطوا الشاطىء لامســت مياه القناة اقدامهم، عندئذ ادرك مراد انهم جميعا قد توحدوا فى رجل واحد، فى نفس واحد ، فى هدف واحد .. الوصول الى موقع العدو .. بالذات الموقع رقم ١٩ .. سيطهرونه .. سيرفعون فوقه علم الوطن .. سيكون هو مع مجموعة « القطع » .. التى تتجه شرقا

الى مسافة ثلاثة كيلو مترات ، سيربضون هناك خلف أحد السواتر الرملية .. يترقبون وصول قافلة امدادات العدو و .. يرصدون تجهيزات القتلة ، يزرعون الألغام على المدقات والممرات ثم يعودون ببعض الأسرى .. هذه أوامر صريحة و .. اهتز بهم القارب بعنف ، سقطت احدى دانات العدو فى مياه القناة ، قذفت الدانة ببعض أحشاء القناة .. الطين .. الحشائش ، الأسماك .. الغام مائية ، بللتهم المياه المخلوطة بالطين ، لم تتحول عيونهم عن الشط الآخر .. فى مقدمة الزودياك زميلهم المهندس ، يتجنب الغام الماء .. يصدم القارب بجريف الشاطىء الشرقى ، يقفزون كالبرق . يصرخ فيهم زميلهم المهندس :

ــ ورائى .. بحذر .. الالغام فى كل شبر هنا !..

رشاشات العدو تزرع الموت فى كل مكان ودانات الأصدقاء ورفاق الحياة ، فى البر الغربى تتجاوز فوقهم ، تدك حصون العدو .. تنشر الموت هناك .. المهندس ينزع الالغام ببراعة ، أقدامهم تتشبث بالأرض ، أظافرهم تنغرس فى السواتر العالية ، الدماء تنبثق من أجساد بعضهم ، الطبيب المرافق يخرج الأربطة الطبية من حقيبته .. يوقف النزف فى سرعة ، مراد وثلاثة من رفاقه يسكتون رشاشات العدو .. يفجرون قنابل الدخان ، قائدهم يزحف بالعلم فوق قمة الحصن .. دانة من البر الغربى أزالت البرج بعلم العدو .. الشظايا تتناثر فى كل اتجاه .. مراد ورفاقه يتجاوزون الحصن ، ــ يستديرون خلفه ، يدمرون دبابة ، يصاب أحدهم ، يحمله زميله الى الشاطىء ، مراد وزميله يجريان بانحناءة الى الأمام ، يربضون فى خندق ، لم يجد وقتا للاندهاش ، اذ رأى الطريق كما درسه فى التدريبات ، كانت الأوصاف والخنادق والمدقات والأسلاك .. كانت الصورة طبق الأصل تماما .. كانت عيناه فى نظرة حب خاطفة قد رأت علم الوطن يخفق فوق الحصن ،

لم يكن يدرى أن بعض الدماء تسيل من رفاقه الآن فوق الحصن، قام مع زميله باكمال المهمة بحرص شديد ، استمرا هناك ليلتين كاملتين حتى جاءت دورية للعدو .. و ..

مراد يذكر الآن ، وهو يتابع رفاقه خلف مدافعهم ، كيف زعق زميله كالوحش الضارى وقفز فوق العربة المعادية ودمرها و .. ظل حيا ، لم يكن هناك وقت للاندهاش ، كانت ذراع زميلهم تنزف .. ربطها له بسرعة برباط طبى و .. استطاعا الامساك بأسير مذعور من العدو .. جذبه بقبضته ، لا يعرف كيف تحولت أصابعه الى فولاذ وهى تمسك بأفروله العسكرى وتجذبه فيسقط على الرمال ، يتخبط تخبطا عند قدمى مراد وزميله الجريح ، و .. لحظتها حدث ما لم يمكن له أن ينساه مدى الحياة، ركع الاسير ولعق حذاء مراد .. لحظتها أدرك مراد أن عدوه لاكرامة له، كاد يشفق عليه، لكنه فى اللحظة التالية ندم على ذلك، اذ نهض الأسير بحركة مفاجئة وقد استل خنجرا من داخل بنطلونه ووجهه الى صدر مراد ، لكن الاصابة كانت خدشا خفيفا اذ ان الزميل المصاب بذراعه تمكن بحركة بارعة من قدميه من الايقاع بالأسير حيث ضربه مراد عدة ضربات « تعجيز » بسيفى يديه على التوالى ثم حمله وعاد مع زميله فى حماية بعض رفاقهما و ..

وعندما تلقى تهنئة قائده على الاسير ، سمع لوما شديدا وكلمات تقول له :

ـ «ان ما حدث كله كان درسا طيبا .. فلا تنس ذلك !..»

و .. ها هو مراد ، مع زملائه ، يصنعون ستارة من النيران لحماية الذين عبروا من « القوات الخاصة » و .. قاس المسافة بينه وبين القناة .. قاسها بعينيه ، بقلبه ، بعقله ، بأحلامه كانت ثلاثة كيلو مترات طويلة .. وقال :

ـ « هانت ! .. »

كان الرقيب مصطفى القطورى قد ارتدى شدة الميدان فى لمح البصر ، وعاد الى موقعه ، داعبه مراد :

ـ « هل اقتنع مختار بيه برأيك يا درش ؟! .. »

قال مصطفى :

ـ « ان ما يحدث الآن سيعجل باقناعه ! .. »

ثم خطر له ان يضيف :

ـ « ان مشكلة البعض فى الداخل انهم لا يدركون حقيقة ما يحدث على الجبهة انهم لا يعرفون معنى هذا اللهب الذى يشق الطريق الوعرة الى صدور وحصن العدو .. ولكنه كان ينصت الآن لصـــوت الدانات المتجهة كالجحيم الىالشرق ، انه أعذب الأصوات وأحبها ، انها عشقه الوحيد ، انها امتداد ساخن لأحلامه، يراها تدق العقبات تمهد الطريق أمام ابنه عاطف ليكون مخترعا عملاقا تتحدث عنه الدنيا كلها .. قال للازمه :

ـ « لقد عبرت أنا أيضا فى العام الماضى .. عدت من هناك بتذكار ثمين .. حفنة رمال ربطتها فى منديلى .. فرح بها ابنى عاطف وأراها لكل زملائه بالمدرسة .. لكنه ظل يسألنى غير مصدق:
ـ هل عبرت حقا يا أبى ؟! .. »

وضحك الرقيب مصطفى وأضاف :

ـ « لم أحب أن أريه أثر الاصابة التى عدت بها من هناك فى فخذى ، لكننى وعدته بأن أحمل اليه أسيرا من القتـلة فى المرة القادمة .. انه ولد عنيد يا فندم ! .. »

داعبه الملازم مراد بقوله :

ـ « على فكرة .. مختار بيه سيرفع عليك قضية ويطالبك بتعويض كبير ! .. »

هز مصطفى راسه ضاحكا وقال :

ـ « فى بلدنا الف محام على الأقل .. وسيقفون معى ضد مختار بيه ، لأنه الوحيد الذى يسىء الى نفسه .. ان عقليته متحجرة بشكل عجيب .. الا يتعلم من ابنته عزيزة ؟ .. وعلى فكرة .. هى عروس ممتازة ؟! .. »

كان مراد يحدق من خلال منظاره المكبر الى هناك .. فى اتجاه الشرق ، وهو يقول :

ـ « طاهر .. شاب ممتاز .. يستحقها بجدارة .. انهما يذكرانني باحلامى .. قبل أن تسافر خطيبتى ـ سابقا ـ الى أمريكا .. اتعرف يا درش .. لقد كتبت لها أخيرا رسالة اقول لها اننى فخور حقا بما تحصله من علم جديد هناك .. لكننى تركت لها حرية التصرف فى مستقبلها .. وبينى وبينك يا درش .. انا مازلت من الداخل فلاحا .. وهذه مشكلتى ، لست ضد التطور .. لكننى لا احتمل ان تحدثنى خطيبتى فى رسائلها عن اعجابها بالاختلاط الشائع هناك بين الأولاد والبنات . لتكن عالمة ممتازة ولتصنع لبلدنا شيئا بعلمها ، لكننى احتفظ بحقى فى الاختلاف معها .. لها سلوكها ولى سلوكى ! .. »

و .. فجأهما صراخ « مختار بيه » :

ـ « يا عالم يا ناس .. انا خايف .. »

و .. علق سالم المنصورى :

ـ « الله .. هذا « افيه » مضحك جدا .. سيجنن عندما يقال على خشبة المسرح .. يجعلها تفرقع وسط الجمهور ! .. »

وهمس له زميله عبد العظيم البحيرى :

ــ « تراهنى ! .. البنت وداد أجمل مليون مرة من خطيبتك أمنيه .. على فكرة .. لم تقــل ماذا تعمــل امنيتك .. ماذا تتعـــلم ؟! .. »

ضحك سالم وقال :

ــ يا بحيرى ! .. انها تدرس الهندسة بالجامعة ! .. »

وانهمك البحيرى فى مداعبة مدفعه بكلمات غزل جريئة ! .. وقال منير ، وهو يفتح صناديق الذخيرة :

ــ « لو اننى كنت الآن معيدا بالجامعة ، لاقترحت تجنيد كل الطلبة والطالبات .. »

واعترض سيد البنهاوى ، وشوح بيده فسقط « نابه » من جيب الأفرول فأسرع يلتقطه وهو يقــول :

ــ « كل واحد له واجبه .. وله عمله ! .. »

وأوضح منير رأيه ، ناسيا انهم قد سمعوه عشرات المرات منه .. قال :

ــ يجب أن يكون الشـــباب الجديد نموذجا فولاذيا لرجال المستقبل .. النار هنا تصهر النفوس .. العقول .. القلوب .. تعلمهم لغة جديدة .. الا تسمع يا ولد ؟! ..

عدل حبشى خوذته على رأسه ، أخرج منديله ومسح حذائه حتى يلمع .. ضحك منه فضيلة المهندس هناء بن عبد السلام ، وغمز بعينه للسيد البنهاوى الذى أعاد نابه الى جيبه وقال :

ــ « لماذا انت صامت يا حبشى بيه .. الا تسمعنا وجهــة نظر أولاد الذوات فى المسألة ؟ ..

ضحك حبشى ، ونظر الى الأفق الشرقى المشتعل بالنار وقال :

ـ « على فكرة يا أولاد .. عندما تنتهى الحرب هنا ، لن أسافر الى أوربا كما كنت أفعل .. »

لسعه عوضين العملاق ، بضحكته التى تعطى لسامعيها حجم جسده الفاره .. وقال :

ـ « لماذا يا حبشى بيه .. خير انشاء الله .. هل تأثرت بمواعظ فضيلة المهندس هناء .. ونذرت رصيدك فى البنك للجهاد فى سبيل الله ؟! ..

قال حبشى بصوت جاد :

ـ « سأبدأ مشروعا تجاريا .. سأعمل .. »

داعبه البحيرى ضاحكا :

ـ « لتربح أكثر يا ولد ؟! ..

قال حبشى :

ـ لا يهمنى الربح .. صدقنى .. لكن يهمنى الآن أن أعمل شيئا يجعل لوجودى قيمة فى الحياة ! ..

قال له الطبيب سمير مرقص ، ومسبحته معلقة بأصابعه الممسكة بدانة مدفع :

ـ « هذه بداية طيبة .. فحياتك الماضية مع فتيات أوربا والاسكندرية عبث لا فائدة من ورائه ! .. »

واقترح زميلهم الصامت « بهاء » :

– « ما رأيك يا حبشى فى عمل مشروع جديد فى أولاد كنانة ! .. »

علق عبد العظيم البحيرى ضاحكا :

– « تقصد مشروعا فنيا .. لنجوم السينما ! .. »

لكنه فوجىء بصمت الجميع ، فخجل من « نكتته » البائخة .. لكن هناء لم يدعه للحرج طويلا ، اذ عاد يقول بصوت وقور يعكس رجولته المبكرة :

– عموما يا بحيرى .. نحن فى حاجة الى تجـــديد الفن والسينما أيضا .. لا بد أن تكون كل المرافق فى جدية هذه النيران المشتعلة أمامنا .. لابد أن تكون العقول فى كل مكان فى مثل العقول الرابضة هنا داخل الخنادق .. فى حالة انتباه دائما ..

طال صمت البحيرى ، و ..

فجأة صاح زميلهم منير :

– لماذا لا نضرب .. اريد أن أطلق هذه الدانات .. لقد تركت عملى فى ادارة الأعمـــال .. لاقاتل .. وها انا أمارس الفرجة على غيرى من المقاتلين .

فداعبه هناء بقوله :

– سيأتى دورنا حالا .. فاعد لهم ما اســـتطعت من قوة البطش يا منير ..

وقبل حبشى احدى الدانات ، وقال :

– أريدك ياحلوة ان تشقى خط بارليف ، تصنعى ممرا طويلا مريحا ، لأن العملاق عوضين الحنك سيمر منه ، ويصعد قمـة

الحصن ، ويجعل من جسمه الطويل صاريا لعلم الوطن .. أتفهمين يا .. »

واطلق لفظا جريئا ، اعتاد ان يداعب به صديقاته .. وأغرق فى الضحك و .. بعث المرح من جديد فى نفوس رفاقه ، فداعبه سـالم المنصـورى :

ــ أراك تسـتعد لنيل ترقية أخرى لدقة التنشين .. يا ولد !

فقال حبشى :

ــ ولم لا .. فسيكون لى أطفال .. وسيكبرون ذات يوم ليروا باعينهم بطولات أبيهم .

فلدغه البحيرى بنكتة قاسية :

ــ « أولادك فى باريس أم .. الاسكندرية يا ولد ! .. »

وقهقه الجنود بقلوب صافية ، وازدادت أشـواقهم الى الضرب .. الى الزحف ، الى اجتياز كل الحواجز والوصول .. الى .. سيناء .. فانهمك كل منهم فى مراجعة واجباته بدقة وعناية ، البحيرى والمنصـورى يتعاونان فى ضبط مدفعهما فى الاتجاه المطلوب درجة بدرجة ، فى سرعة خاطفة ، المهندس هناء ، وبهاء ، يتبادلان الهمس وهما يعدان الدانات فى نظام يسهل عمل زملائهما .. حبشى وعوضين عيونهم على دائرة التنشين و .. يتبادلان نكتة جارحة عن العدو .. ويمنيان نفسيهما بصيد ثمين من الأسرى ، البنهاوى يرغب فى العزف الآن على نايه ، وثمـة قصيدة جديدة من المصريات القديمة تداعب خياله ، سمير مرقص، مسبحته لا تعوقه عن اعداد الاسعافات الطبية ، و .. المنصورى يفاجئهم بقوله :

ـ « يا أولاد .. هذه دعوة منى لمشاهدة مسرحيتى الجديدة .. ستكون عنكم .. وستعرض على خشبة المسرح القومى .. فابشروا .. فقد قررت ادخالكم التاريخ من أوسع الأبواب يا أولاد الـ ..

وتبادلوا الضحكات المرحة ، وازدادوا قربا من بعضهم ، و .. تدريجيا توحدت أنفاسهم .. نبضاتهم ، أمانيهم ، أحلامهم .. ذكرياتهم ، صاروا جميعا فى .. واحد .. واحد عملاق .. شرس ، فولاذى ، تجتاحه أمنية واحدة .. الضرب. تدمير العـدو .. ازاحة العقبـات ليعـانقوا أحلامهم التى طال تأجيلها ..

و .. وجاءهم صوت الملازم ، صوت الرقيب .. صوتهم .. بالأمر العظيم :

ـ « فى الليان يا رجاله .. اضربوا ! .. »

و .. زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت مدافعهم أثقالها ، وخلقوا الجحيم فى الأفق الشرقى ، رشقوا السماء بآلاف الدانات، مزقوا السحب الداكنة وصنعوا ستارة من اللهب والفولاذ ، أمام طائرات العدو المغيرة بجنون فى اتجاههم و.. هوت طائرة وصارت كتلة من النار والدخان تنزلق الى النهاية أمامهم وهتف صوت عملاق ، صوتهم جميعا ، يحيون زملاءهم رجال الصواريخ فى المواقع القريبة منهم :

ـ « الله .. الله .. الله أكبر .. »

وأحسوا فى خنادقهم ، وراء مدافعهم ، ورشاشاتهم ، انهم جزء من الدرع الضخمة المصنوعة من رجال المشاة والمدفعية والصواريخ بطول وعمق وادى النيل .. أدركوا أنهم قد امتزجوا جميعا ، صاروا جسدا واحدا ، عقلا واحدا ، قلبا واحدا .. صدرا

واحدا ، و .. كانت طائرات العدو تملأ المنطقة بخوارها الذبيح ولهب اسلحتهم يتجاور ، يتزايد ، يزرع الحرائق والدمار هناك ، فى مرابض وخنادق وحصون العدو .. فى سيناء ، و ..

قال لهم الملازم بعد ساعة ، بعد ساعتين :

ــ « **كانت جولة عملاقة حقا .. أليس كذلك ؟! ..** »

وتبادلوا السجائر وأكواب الشاى ، وضحكوا عندما وجدوا مختار بيه يزحف نحوهم معفر الوجه والثياب ، شاحبا ، فسأله الملازم :

ــ « **لعلك بخير الآن يا مختار بيه ! ..** »

فقال لاهثا :

ــ « **هل انتهت الحرب ؟! ..** »

فداعبه مصطفى القطورى :

ــ « **يارجل .. انها لم تبدأ بعد ؟! ..** »

بهت مختار ، وقال مرعوبا :

ــ « **والجحيم الذى كنت فيه الآن ؟ ..** »

قال مصطفى :

ــ « **مجرد اشتباك ! ..** »

ثم فاجأ مختار بسؤال :

ــ « هل تصريح دخولك هذه المنطقة معك ؟! .. احذر أن يضيع منك والا اعتبرناك في هذه الحالة ضــيفا غير مرغوب فيــه ! . . »

ازداد ارتباك مختار بيه ، وهو يبحث فى جيوبه عن تصريحه، وطيب الملازم مراد خاطره ، أعطاه كوب شاى ، وسيجارة ، وقال :

— درش يضحك معك ! ..

دهش مختار ، كيف يمزح ضابط مع شاويش .. مع جنود .. كيف يبتسم هؤلاء الرجال وهم هنا ، يحاربون وسط جحيم لا يطاق ، عجز عن فهم ما يراه أمامه ، لم يفهم بسرعة ما قاله عوضين العملاق عن العلاقات الانسانية — التى تربط بينهم فى الخنادق ، لم يستوعب ما قاله الملازم عن روح الأسرة الواحدة التى تسود عملهم ، لكنه ببطء شديد بدأ يرى بعينيه المودة التى يكنها كل جندى لزملائه ولمس فى مزاحهم ذلك الشيء الدقيق الذى جعلهم هنا يحيطونه هو بالرعاية والاهتمام .. و .. بدأ يفهم رغما عنه .. بدأ يدرك ، بدأ يضحك معهم ، وأحس انه يغتسل بعرقه وتراب الخنادق وابتسامات الوجوه من حوله ، وادار عينيه فى المنطقة ، لم ير شيئا من أسلحة وذخائر الجنود، فقط رآهم هم .. رأى عيونهم ، وجوههم ، دعاباتهم ، طعامهم، وادرك عودته البطيئة من غيبوبة ، من استرخاء .. من رفاهية ، من حياة عجيبة كان يعيشها لنفسه فقط ، واكتشف ان وجهة نظر ابنته عزيزة اجمل بكثير مما كان يظن ، اى بوتقة رهيبة قاسية ، صادقة، يصنعها الرجال هنا لأحلامهم، أى نار ينصهرون فيها ، أى نبل عظيم كان يجهله هو وأمثاله فى القاهرة الهادئة و .. ولكن هل معنى هذا انه وحده كان على خطأ .. لا .. لا .. ان هذا هو عملهم .. أن يقاتلوا أو يموتوا .. هم أحرار فى انفسهم و .. اراد ان يجاملهم فقدم لهم سجائره .

واعترف لهم ، دون حياء أو خجل ، بانه خاف من الدانات، انه فزع من النار ، من طائرات الفانتوم ، وانه كان يسخر من أنباء اشتباكاتهم عندما كان يسمعها فى الراديو ضمن نشرات الأخبار ، ولم يكن يصدق شيئا منها ، لكنه الآن سيحكى لزوجته ، لأصدقائه انه رأى بعينيه كيف تسقط الفانتوم ، وانه

كان يتابعها مرعوبا حتى احترقت فى حقل بعيد ، و .. تمنى — فى سره — لو أن شقته الخاصة بالزمالك قد تهدمت على ذكرياته السخيفة مع أصدقائه وصديقاته العابثات ، وقرر بينه وبين نفسه أن يغلق هذه الشقة فور عودته من هنا ، أن يعمل الكثير ليكفر عن أخطائه ، و .. سيعتذر لابنته عزيزة ، لابنه ماهر ، سيثبت لهما أنهماتعلما كل ما قالاه ، كل ما فعلاه ، منه هو ، فهو ليس باقل منهما حبا لبلده ، سيقول لأولاد كنانة أنه أخطأ فى حقهم وسيقف معهم بأمواله .. سيتبرع لهم بالكثير .. سيجعل الصحف تدعوا الوجهاء للتبرع ببعض أموالهم .. وسيعتذر للدكتور نعيم وللولد طاهر سيقول لهما : انتما طبعا تعرفان انه ليس عيبا أن يخطىء الانسان ، لكن العيب أن يستمر وانه سيقود بنفسه حملة التبرعات و .. لكنه اسكت نفسه ، قال فى سره : لتكف منذ الآن يامختار .. عن التفلسف .. والادعاءات وترديد الكلمات الجوفاء ، انك عشت هنا تجربة العمر وعرفت ان كل ما يحدث كان لغرض ، كانت وراءه حكمة ، وان الذين وزعت الحكومة عليهم أراضيك هم الذين انجبوا هؤلاء الأولاد الأبطال الذين ضربوا العدو أمامك ، واسقطوا طائراته أمامك ، ودافعوا عنك ، عن أولاد كنانة كلهم ، وهم الذين يواجهون الخطر والموت هنا ، فى خنادقهم خلف أسلحتهم ، دون ان يخافوا ، أو يترددوا .. ومع ذلك فالواحد منهم هنا لا يهمه أن يأكل طعاما ساخنا .. أو فاخرا ، بل ان الطعام هنا له مذاق آخر ، لقد أحس به فى حلقه ، وكانه مخلوط برائحة البارود والتراب والعرق والدم .. كانت أشهى لقمة أكلها هى التى تناولها مع الجنود هنا .. ومع ذلك فهو مازال عاجزا عن فهم سر حبهم العجيب لمدافعهم هنا ، انهم يتبارون فى اظهار فهمهم للغةالقنابل وأنواعها ، بل انهم يفهمون لغة الأرض والسماء والعرق والدم ، و .. تذكر ما درسه ذات يوم فى الكلية عن ثورات الشعوب

فى الزمن القديم والحديث ، وكيف بذلوا الدم من أجل « حقوق الانسان » فى شوارع فرنسا .. وازقة حى بولاق والأزهر .. واقسم لهم بأن ما حدث امامه منذ لحظات ، يفوق كل ذلك ، و.. وجد نفسه ينحنى ، يقبل تراب الخندق وانخرط فى بكاء هز جسده بعنف وهو يتمنى لو اغتسل نهائيا من ذنوبه الخاصة !.. و.. وعدهم ببذل كل جهد من أجلهم .. اذا عاد من هنا سالما !..

***

فى أولاد كنانة ، كان الرجال والنساء والأطفال ، يعودون الآن لمواصلة عملهم فى ازالة بقايا آثار الدمار .. وكفوا عن صمتهم وقلقهم عندما جاءهم صوت عزيزة مختار ، تغنى وهى تعاكس صديقها طاهر :

ــ « بلدى يا بلدى .. وأنا بحبك يا بلدى ! .. »

وتوحدت اصوات الجميع وسط التراب والهدد والعرق وهى تردد بثقة وعناد : « وأنا بدى أحرر بلدى ! .. »

الفصل الثانى عشر

على خط النـــار

أضاف الدكتور نعيم عطية ، وهو ينظر فى عيون و .. وجوه .. ابنائه .. وأهل البلدة :

ـ « وبعد .. قالت بريطانيا للخديو اسماعيل ، انها مستعدة تشترى أسهم مصر فى قناة السويس .. وانها مستعدة أن تقدم له الأموال اللازمة بفوايد قدرها ٥٪ فقط .. شوفوا بقى كـام الف جنيه فى كام سنة واحسبوا الديون والفوايد اللى ركبت مصر فى سبعين سنة .. و .. »

كان يتحدث الى « أولاد كنانة » الذين جلسوا متلاصـقين، وبينهم الطلبة والطالبات ، وبعض جنود المواقع القريبة .. وكانت عيناه فى نفس اللحظة تدور فى المنطقة الفسيحة المحيطة بهم .. كانت الأرض مقسمة من حولهم الى بساتين فاكهة مهملة ، وغيطان خضروات وفول سـوداني وسمسم ونخيل و .. كان عطية الصعيدى يسوى الشاى فى حلة كبيرة وضعتها البنت وداد أمامه، فوق النار التى أشعلها فى بعض الأخشاب وضعها بين قالبين من الطوب ... وشرد ذهنه المرهق فى عبد الودود البقال ، حاول ان يحسب فوائد الأموال التى استدانها منه برهن الفدان ، و .. عض طرف شفته السفلى وقال :

ـ « لو اعرف كيف هرب الكلب ؟! .. »

كان ابنه طاهر مرحا سعيدا بين زملائه ، رآه بجوار البنت عزيزة مختار .. رآه كالقمر فى ليلة تمامه ، تخيله عريسا يشرح القلب ولمحه يداعب البنت عزيزة ويضاحكها وهما يخطوان من عتبة الدار الجديدة التى بناها فى « أولاد كنانة » و .. أحس بوحدته .. تذكر شريكة عمره ، زوجته التى رحلت وتركته وحده و .. وازداد الفل فى صدره فصاح دون أن يدرى :

ـ « ربنا يخرب بيتك يا منشار » ..

فضحك حسنى الترزى وقال :

ـ « حيحصل باذن الله ! ..

.. اندهش الشبان و .. الدكتور نعيم ، وابتسم أهل البلدة ابتسامات شاحبة مهزوزة ، كانوا قد تذكروا جميعا عبد الودود البقال .. كما تذكره «عطية الصعيدى» فحديث الدكتور عن حسبة الفوايد فجرت كل أحزانهم مع « المنشـــار » الذى « يسلفهم أمواله بالفايظ » و .. لكنهم كانوا يعرفون أن ديونهم كوم ، ودين عطية الصعيدى كوم آخر .. فهو قد رهن الفدان، دون أن يحسب حسابا لشىء .. حاول بعضهم التهوين على عطية الصعيدى ، قال مرسى المنفلوطى بثقة كبيرة :

ـ « البركة فى الأستاذ طاهر »

قالت البنت عزيزة مختار ويدها على كتف طاهر :

ـ « غدا طاهر يعوضك عن كل التعب و .. الفدان .. يابا عطيـــة » ..

ذابت أحزانه دفعة واحدة فى دموع صامتة على أخـاديد وجهه ، عندما سمع البنت عزيزة بنت مختار بيه الأرناؤوطى ..

تقول « يابا عطية » هل نسيت أصلها ؟ .. كل ما يمكن له أن يدركه الآن ، انه وجـد زملاء وزميلات ابنه ، بسطاء مثله وليسوا من الأعيان كما كان يتصور .. انهم أولاده .. قال :

ـ « الفدان .. والدار .. وأنا .. فداك يا طاهر ! .. لاتشغل بالك ياولدى ! »

وحاول طاهر أن يخفى آلامه ، حاول أن يبتسم ، لكنـه فشل . نكس رأسه بين ذراعيه ، لقد دهمته حياته الماضية كلهـا دفعة واحدة . انفردت امامه شريطا طويلا ضيقا مليئا بالحفـر والمطبات وخيزرانة خولى الأنفار فى غيطان الناس وثيابه الممزقة وهو يعمل أجيرا مع أبيه و .. امتدت اليه يد مرسى العرضحالجى .. بسيجارة فدخنها دون حرج .. اعتاد أن يدخن مع زملائه منذ جاءوا للعمل هنا .. وما لبث أن نهض ، وابتعد عن (القعدة) المجتمعة حول الدكتور نعيم .. كان قبـل لحظات فرحا باستاذه الذى حرص على أن تكون أوقات الراحة من العمل درسا للجميع .. يتذاكرون من خلاله الحكاية الطويلة لمصر مع الاستعمار .. لكنه الآن كان ضائق الصدر ، تجمعت آلامه كلها فى مسألة رهن الفدان انشغل بالسـؤال :

ـ « كيف رهن الفدان .. كيف أخفى عنه الأمر .. أى شىء مخيف يحتمله أبى وحده ؟! ..

لقد ظن طاهر أنه فى الصباح صار قويا .. أقوى من مختار بيه الذى جاءه معتذرا وداعبه أمام عزيزة ، وقال :

ـ « لقد تغيرت نظرتى لك يا طاهر ! .. »

لكن .. ها هو فدان أبيه ، عمر ابيه واحـلامه وماضيه وتعب العمر كله .. قد سقط ـ فى غفلة منه ، فى براثن عبـد

الودود البقـال .. ولا يعرف كيف ينتزعه منه مرة أخرى ، فالمال شـحيح ! ..

ظل طاهر يمشى فى الغيطان بجوار المصرف الكبير ، فى الظلام يقلب الأمر من كل ناحية ، استقر رأيه على أن يبحث — بشكل جدى — عن عمل — بعد أن ينتهى من بناء أولاد كنـانة مع الأهل والزملاء ، ولكن .. هل سيحصل على أجر يكفى لسداد الديون وتسيير أمور الحياة له ولوالده وأيضا اصلاح الفدان مما أصابه ؟ .. و .. استند الى جـدار « المصلية » متعبا وحيدا فى الظـلام ..

كان فتحى الصحفى .. قادما على « الفزبا » الصغيرة ، من بعيد لم يكن قد ظهر بعد ، لكن صوتها المبحوح والتكتكة المتقطعة ونورها الباهت أعلن قدومه من وسط الظلام وسرعان ما توقف بالقرب من طاهر .. تبادلا التحية والنظرات ، حاول طاهر أن يتشاغل عنه ، لكن فتحى ركن « الفزبا » عند المصلية ، وسار معه ، سأله عن آخر أخبار المشروع ، وماذا فعلوا أثناء اشتباكات الأمس و .. ثم قال له بفرح :

— « عندى لك مفاجأة مدهشة ؟! »

استدار اليه طاهر .. كان يرغب فى أى شىء يخرجه من الكآبة التى تحاصره ، قال بلهفة :

— « خير ان شاء الله ! .. »

أشـعل فتحى سيجارة لنفسه ونفث الدخـان من شفتيه وأنفه بلذة وقال :

ــ « كل الصحف فى البلد .. والبلاد العربية والصديقة اشترت الموضوع الذى كتبته عن مشروع أولاد كنانة .. ستنشره مع صوركم .. لقد أعطانى رئيس التحرير فى وكالة الأنباء مكافأة متواضعة .. سأتبرع بنصفها للمشروع .. كان بودى التبرع بها كلها .. لكن انت تعرف مطالب الحياة والزوجة والأطفال « والفزيا » وخلافه .. »

وضحك بسعادة غامرة ، ولكن طاهر ظل مشغولا بأمر الفدان وقال فى نفسه :

ــ « عبد الودود الكلب .. سيكون لى معه حساب عسير ! .. »

***

سأل المقاتل عبد العظيم البحيرى عن « وداد » .. كان يريد أن يحكى لها كيف قبل مدفعه أمس قبل أن يطلقه مع مدافع زملائه فصنعوا ستارة من الجحيم فى وجه طائرات العدو .. ثم يخرج من هذه الحكاية ليحدثها عن انشغاله طوال الاشتباكات بأمرها هى وأولاد كنانة ثم .. تدريجيا ، يحدثها عن قلقه عليها هى و .. يريها الصورة التى رسمها لها و .. حتما سيأخذهما الحديث الى أحلام حلوة و .. لكنه لم يجدها ..

قال له مرسى العرضحالجى :

ــ « فى المستشفى يا ولدى .. »

فزع البحيرى ، انقبض قلبه ، قال :

ــ « هل أصيبت ؟ .. »

لكن الدكتور نعيم طمأنه :

ــ « اخذتها معى فى الصباح وزرنا والدها « على الطواب » .. وتركتها هناك لتعود معه .. تصوروا .. مختار بيه رفض أن يتركنا عند باب المستشفى وظل معنا و .. عرض أن يتم علاج عينى على الطواب فى القاهرة وعلى نفقته ــ لكن الطبيب قال ان الأمر لا يحتاج لذلك ، .. لقد تغير ابوك كثيرا يا عزيزة .. »

قالت عــزيزة :

ــ « وكذلك أخى ماهر .. »

صارحها الدكتور نعيم :

ــ « بينى وبينك .. اذا أخطأ شاب مثل ماهر فله عذره .. السن احكام .. لكن الذى كان يؤلمنى حقا هو أن والدك كان يخفى برأسه افكارا خطيرة بالفعل ، لولا أن الله ساعده عـلى مراجعة نفسه .. وارجو ان ينجح فى تغيير افكاره .. وان ينسى احقاده وان كنت أعرف مقدما انه سيحاول استثمار الحـكاية كلها لصالح اهدافه ومصالحه الشخصية و .. معذرة يا ابنتى!..

قالت عزيزة فى أسى :

ــ « مهما يكن فمن حسن حظنا جميعا اننا جئنا الى هنا .. انه « المطهر » الذى حدثتنا عنه يا دكتور .. »

قال الدكتور :

ــ « المطهر .. هنا .. يختلف طبعا عن ذلك الذى أبدعه خيال « دانتى » .. لقد امتزج هنا الجحيم بالمطهـر بالفردوس بنيران مدافع وطائرات وموت ودمار ورجال وخوف وصلابة وتردد وشجاعة .. أتعرفين يا عزيزة .. اننا نحيا على أرض الحقيقة هنا .. بعيدا عن استرخاء القاهرة ورفاهيتها وزيف البعض فيها .. واننا باذن الله الى العبور المنتظر نسير مادامت هذه هى الحقائق

كما نراها فى أولاد كنانة بأعيننا .. كما نعيشها ونتنفسها مع هؤلاء البشر بصبرهم وسلاحهم .. »

قالت عزيزة :

ـ لكن .. ألا ترى أن الطريق طويل .. وشاق .. ملىء بالذين يضايقون أنفسهم ويرهقون الآخرين بالأوهام والأحزان والملل ؟! .. »

جلس الدكتور نعيم ، جلست عزيزة بجوارهم ، فوق كومة من مخلفات الدمار .. وقال لها :

ـ «لن أحكى لك هذه المرة حكمة من التاريخ البعيد.. وانما سأروى لك عن أحد أصدقائى .. انه رجل معقول فى كل شىء .. بهذا شهد له الناس .. ومشكلته أن أحلامه تناطح السماء .. تعانق الشمس .. كان فى شبابه يخرج فى المظاهرات من الجامعة ضد الانجليز و .. كان يضرب و .. يتضرب ـ لكنه لم يخف .. وبعد ذلك قامت الثورة وطردت الملك والانجليز و .. وزعت الأرض و .. لم يأخذ صاحبى هذا قيراطا واحدا لأبيه . ولم يحصل لنفسه على وظيفة أعلى .. ظل كما هو مدرسا متواضعا فى الجامعة و .. لم يفقد أبدا أحلامه أتعرفين لماذا يا ابنتى ؟ لأنه يرى هذه الأحلام تتجسد فى بنات وأولاد نابهين من تلاميذه و .. هكذا يشعر بامتزاج الرؤية .. و .. توحد الأحلام و .. أليس هذا كافيا ليجدد عزمنا على أن نستمر معا .. نحتمل كل المرارة .. لنجتاز الخطر ؟! .. »

طوقت عزيزة عنق استاذها قبلت جبينه وقالت :

ـ لكنك يا دكتور .. نسيت شيئا هاما .. ان قصتك الأخيرة « وراء الشمس » كشفت عن آلام المعتقل التى عشتها فى شبابك !..

ضحك الدكتور .. وقال :

- **لقد سجن الملك والانجليز و .. الأعوان مئات .. وآلافا .. غيرى .. لم أكن الوحيـــدة الذى تعرض لهـــذه التجربة الوقحة ! .. »**

و .. صمت الرجل برهة ، كادت آلام الماضى تمزق أعصابه، واسرع يغير الحديث ، سألها متضاحكا :

- « و .. هل أعجبتك القصة ؟ »

قالت عزيزة :

- **« كالعادة طبعا .. لكننى أحلم باليوم الذى أقرأ فيـــه قصتك عن اولاد كنانة .. »**

ضحك الدكتور ، وربت على كتفها بأبوته المعهودة ، وقال :

- **«لا .. هذه قصتك أنت وطاهر .. وكل الشباب هنا .. انها تجربتكم الساخنة ، وعليكم ان تحاولوا من الآن صياغتها شعرا ومسرحا وقصصا .. »**

فسألته .. ما رأيك فى طاهر .. ان ظروفه قاسية !..»

قـــال :

- **« اننى أرقب احتماله عن قرب .. فهو شاب دءوب .. معدنه صلب .. ولعلك لاحظت العلاقة الحميمة بينه وبين تراب هذه الأرض .. وانسان مثله لن يلين عن اقتحام الصعب .. صدقينى فنظرتى لأولادى لم تخب من قبل » .**

قالت :

- **« لكنه فى حاجة الى دخل معقول .. لابد له من عمل..»**

قال الدكتور نعيم مندهشا :

ـ « ظننت أن أباك أخبرك .. لقد قال لى أنه عين طاهر بمكتبه وباجر يثير غيرة واحد مثلى ! .. »

و .. قفزت عزيزة فرحة وهرولت تبحث عن طاهر لتزف اليه النبأ العظيم و .. ظل د. نعيم يرقبها وهو يتذكر سنوات عمره التى مرت دون ان تؤنسه زوجة أو أولاد .. كان ذات يوم يخشى أن يضطر للمخاطرة ، ولم يكن يريد أن يعذب احدا معه .. كان له نشاط لا يرضى حكومات ذلك الزمن و .. اعتاد الحياة فيما بعد وحيدا راضيا ان يجد العزاء فى تنشئة عقول تلاميذه عاما بعد عام ، ولكنه الآن يصارح نفسه بأشواقه الخاصة ، قال فى سره :

ـ « لابد من البحث عن زوجة ترضى بكهل مثلى ! .. »

و ... ...

و ... ...

و ... ...

نهض الدكتور نعيم من جلسته اتجه الى أولاد كنانة ، ادخل نفسه فى زحامهم و .. سرعان ما تصبب جسده عرقا وهو يحمل معهم آثار الدمار ..

***

فوجىء الجميع برجل وامرأة وعيالهما ، يحزمون متاعهم و .. لمحتهم البنت سميرة ، وهى تدور بأكواب الشاى ، اقتربت منهم ، عرفت فى الرجل عمها الحاج متبولى جارهم من زمن بعيد وصاحب ماكينة الطحين ، الذى طالما عاكسته ليطحن لها الحبوب بذمة وضمير و .. كم اتهمته بأنه قد عمل ثقبا فى « قادوس »

الماكينـــة ليسرق منها الدقيق وعرفت فى المرأة زوجته ، التى **اعتادت أن تدعوها** « خالتى وهيبة » ، وكانت تراها تعمل مــع **زوجها** فى طحن القمح والذرة لأولاد كنانة، و.. سألتهما مداعبة:

ـ « ايه .. الدار مش عجباكم والا ايه ؟! .. »

نظرا اليها ، وظلا صامتين ، قدمت الرجل كوب شاى وقالت ضـــاحكة :

ـ « اذا كانت الدار مش عجباك .. استننى لما نبنى دار ثانية جــــديدة .. »

كانت البنت سميرة مستمتعة بهزرها مع «المتبولى» وزوجته (**وهيبة**)وهى تنظر الى الجدران المهدودة واكوام التراب والقش **حولها** و .. لكنها صدمت بقوله :

ـ « احنا ماشيين من هنا خالص ! ..

هزت البنت رأسها ، حاولت أن تفهم واسرعت وهيبة تقول **لها** :

ـ (مبقاش لنا عيش هنا يا بنتى ! .. »

صاحت بفزع :

ـ « حتهاجروا ؟! .. »

قال الرجل :

ـ « بلاد الله واسعة ! .. »

قالت زوجته ودموعها تسيل على وجهها الممصوص ::

ـ « مكنة الطحين والدار .. راحت .. كل شىء راح ! .. »

وفى دقيقة واحدة ، كانت البنت سميرة تنشر النبأ فى أولاد

كنانة بصوتها المفزوع .. وكان أولاد كنانة قد التفوا حول المتبولى وزوجته (وهيبة) وعيالهما الخائفين ..

قال الحاج نور الدين مشجعا :

ـ « يا متبولى .. كيف تفرط فى بلدك وأهلك ؟!.. »

وقال له مرسى العرضحالجى :

ـ « انت رجل عاقل وأولاد كنانة فى حاجة اليك .. ستبنى ماكينة طحين جديدة و .. »

قاطعه المتبولى بصوت يمزقه الغضب والألم :

ـ « مقدرش أعيش مع أولادى فى الخراب والموت أكثر من كده ! .. »

وحمل مع زوجته حاجياتهما وسحبا العيال وابتعدوا عن أولاد كنانة الصامتين .. جرى وراءهم الدكتور نعيم وماهر مختار .. حاولا التفاهم مع المتبولى ، لكنه ركب دماغه ، وظل يسير صامتا مهموما .. وما لبث أن غاب مع أسرته وسط الظلام ! .. »

صعد مرسى العرضحالجى فوق بقايا جدار ، نظر الى وجوه الرجال والنساء والأولاد والبنات أمامه . صدمه الصمت والقلق المسيطران عليهم ، أدار ـ عينيه فى السماء .. فى النجوم ، وهبطت نظراته الى آثار الدمار ، الى غيطان البساتين والفول السودانى والسمسم والنخيل وزعق .. وجد نفسه يزعق :

ـ « يا أولاد كنانة .. شدوا حيلكم .. هيلا هووب .. .. هيلا هووب .. »

و .. زغردت ابنته سميرة .. وجدت نفسها تزغرد عندما رأت الناس من حولها يعودون للعمل . وسمعت البنات والشبان

يغنون ويرقصون ويخلون المكان من أكوام الهدد شبرا بعد شبر و .. قبلتها الست عطيات .. زوجة أبيها .. وربطت لها شعرها بمنديل ، وهمست فى أذنها ! .

ـ « الولد حسنى الترزى كلمنى .. العبيط فاكرنى مش موافقة ! » .

***

اندهشت عزيزة ، عندما طال بحثها عن طاهر دون جـدوى .. لم تجده وسط « الشغيلة » .. ولا عند أكوام الزلط والرمل، ولا عند المصلية .. و .. قابلها فتحى الصحفى عند مشارف القرية ، قادما من ناحية الموقع .. استوقفها ليعرف تفاصيل قصتها .. والتقط لها عدة صور وهى منفعلة ، قال لها :

ـ « ســـتكونين فتاة الغلاف لكل المجلات المصـــورة فى العالم كله !.. »

كانت تسأله عن طاهر .. أخبرها أنه كان معه فى الموقع وحكى لها ما قالاه عنها هى وشقيقها ماهر و .. شد انتباههما غناء الشبان وزغاريد البنت سميرة و .. أسرع فتحى ليلتقط بعض الصور ليتمكن من اللحاق بآخر طبعة من الصحف قائلا لنفسه :

ـ « أولاد كنانة تعمل وتغنى .. على خط النار .. هــذا هو العنوان المناسب للموضوع ! .. »

***

فى آخر الليل ، حل التعب بأولاد كنانة ، وأسندت عزيزة رأسها على كتف طاهر ، فوجئت به يقول بقلق :

ـ « عائلة المتبولى هاجرت .. هربت ! .. »

قالت : « شيء طبيعي أن يضعف أحدنا ! .. »

هز رأسه ، حدق في الأفق البعيد ، جذب أطراف البطانية حول جسده ، حيث كان يجلس مستندا الى بقايا جدار .. أحس بانتظام أنفاس عزيزة .. نامت وهي جالسة بجواره .. ربت على شعرها بحب و .. قبل أن يغمض عينيه لمح شبحين يتحركان بحذر وسط أكوام الطوب والتراب ، ظل يراقبهما ، حتى اقتربا .

كانت وداد .. وعبـــد العظيم البحيرى .. كانا يسيران متهالكين فقد ذهب اليها في المستشفى بحديث الهوى والمحبة.. وها هو يسندها بذراعه .. بحبه .. وتساءل طاهر :

ـ هل ستسمح الأيام العصيبة بفرحة يتمناها العشاق في أولاد كنانة ؟! ..

الفصل الثالث عشر

الميلاد القادم

قال الرقيب مصطفى القطورى :

ـ « تراهنونى يا أولاد ؟! .. »

التفت اليه محمود القناوى والسيد البنهاوى اللذان كانا يتسليان بلعب الورق .. وسأله أحمد الشعرانى ، وهو يكتب رسالة اخرى لخطيبته :

ـ « على ايه يا عم مصطفى ؟! .. »

قال الرقيب مصطفى :

ـ « اننا سنصيد السمك حيا بأصابعنا قريبا ! .. »

قال أحمد الشعرانى بنفاد صبر :

ـ « شبعت ألغاز يا عم مصطفى .. البنت وفاء خطيبتى .. وكل باب الشعرية يعرفون ذلك .. لكن السيد والدها المحترم يريد تزويجها لابن شريكه فى المحل الجديد و .. »

قاطعه الرقيب مصطفى متضاحكا :

ـ « لانك ولد لخمة .. تغرق فى شبر ماء .. أقول لك سنصيد السمك حيا باصابعنا .. وبعدها ستعرف كيف تصيد

قلب حماك العزيز وتجعله يحمل اليك ابنته وفاء على دماغه حتى اعتاب دارك ! .. »

اندهش أحمد الشعرانى ، وضحك القناوى والبنهاوى واختلفا على بصره و .. نصحهم الرقيب مصطفى بالنوم مبكرا استعدادا لنوبة الحراسة القادمة وصعد درجتين من التراب المخلوط بالزلط والرمل ، واجتاز ممرا بين الخنادق واتجه الى خيمة « سمير مرقص » ليطمئن على معداته الطبية ..

***

التقت نظرات محمود القناوى والسيد البنهاوى وأحمد الشعرانى للحظة حاولوا أن يحلوا اللغز الجديد الذى قاله لهم درش العجيب لكنهم ما لبثوا أن تشاغلوا كل بهمومه الخاصة .

كان محمود القناوى لا يعى ما يفعله زميله البنهاوى بورق الكتشينة .. كان قلقا لعدم حضور صديقته « سهير » الى أولاد كنانة كما اتفقا ذات ليلة بعيدة .. ولم ترسل خطابا واحدا يريحه ، و .. هل تكون قد هاجرت كما أخبرته الى السعودية أو الكويت أو أوربا ؟! .. هل نسيته ونسيت حبهما وأحلامهما ، أم تراها أصيبت بمكروه منعها من الحضور .. عادت الى ذاكرته ــ تفاصيل السهرة الأخيرة لهما فى الكازينو العائم و .. كل ما قالاه .. و .. الترمس الذى أكلاه على شط النيل .. ووعدها بالحضور اليه فى أولاد كنانة و .. هل حصلت لأمه على عمل ؟ ..

صرخ احمد الشعرانى :

ــ « يجب تخصيص طائرات للبريد هنا .. على الأقل طائرة هليوكوبتر .. البنت وفاء لم ترسل خطابا واحدا منذ شهر ؟! .. »

علق محمود القناوى :

ـ « والبنت سهير عمرها ما كذبت على .. عرفتها من سنتين .. من الف سنة اعرفها .. احبها .. لكنها لم تحضر .. لم ترسل خطابات ! .. »

ضحك منهما السيد البنهاوى ، وقال :

ـ « تعلم يا ولد انت وهو حكمة الحب والعشق التى امارسها بمزاجى دون اية ارتباطات .. أهم نتائجها اننى لا أتعذب من أجل احداهن ابدا .. فانا احب من اشاء وقتما اشاء واحتفظ لنفسى على الدوام بحرية الحركة والمناورة .. »

فقال له الشعرانى مؤنبا :

ـ « يا بنهاوى .. انت .. طلوقة .. لا تعرف نعمة الحب الحقيقى .. انه عبادة .. حياة .. »

ـ « كف عن أحلامك يا ولد وافهمنى .. ان الحب الذى توهم نفسك به يعنى قيود زوجية وبيت واولاد ووجع دماغ ! .. »

قال محمود القناوى :

ـ « وهل تكون للحياة قيمة بغير ذلك ! .. »

سخر منهما البنهاوى .. وقال :

ـ انتما مغفلان كبيران .. وعلى ذلك فسوف اكسب فيكما ثوابا وانبهكما للخطر قبل وقوعه ! .. »

و .. اعتدل البنهاوى فى جلسته .. صار مثيرا للضحك بمرحه ، وبعوجة طاقيته الكاكى فوق رأسه ، وبجدية الواعظ التى يحاول اصطناعها على وجهه .. وقال :

ـ أولا .. نولع سيجارة تعدل مزاجى ..

واشعل لنفسه سيجارة من علبة القناوى اوحتفظ بالعلبة كلها - ثم .. ها هى قصتى يا ولد انت وهو .. كان لى حب رائع وعظيم ، كانت اسمها « منى » .. كانت أجمل بكثير من سهير و ..وفاء .. كانت مثل « لهطة القشطة » .. كنت أحلم بها وانا فى الأتوبيس و .. البيت و .. فى ملفات أرشيف شركة المقاولات .. و .. تزوجتها عملا بنصيحة أمى وأصدقائى و .. جئت الى هنا .. الى هناك .. اخذت أتنقل بين المواقع .. ورجعت فى أول اجازة وانا أحلم بأحضانها .. لكننى لم اجدها .. كانت تعاركت مع أمى وتركت لها البيت والولد الصغير .. ابننا الذىكان يحبو .. كان حلم حياتى وحياتها .. ابنى « وليد » الذى يتهته بكلمة « بابا .. » فتخرج من فمه حلوة رقيقة جميلة .. ذهبت الى - منى - .. لكنها أصرت على ان حياتها مع أمى من المستحيلات و .. طلبت ان تكون لها شقة خاصة بها و .. لم اكن اقدر على اعادة امى الى القرية .. فأنا كل عائلتها على ظهر الأرض و .. فى ثانى اجازة كانت « منى » قد حملت جهازها وثيابها وابنها ورحلت الى بيت أهلها ، وفى خامس اجازة كانت تصر على الطلاق و .. تم الطلاق ايها السادة وظلت تطاردنى بأمر المحكمة بـ .. بالنفقة و .. عرفت اننى كنت مغفلا كبيرا لأننى أحببت و .. »

قال محمود القناوى :

- « لو كان بينك وبينها الحب الحقيقى ! .. »

فقال البنهاوى ساخرا :

- « يا سلام على الوعظ .. ياابنى افهم .. الست « منى » كانت مشغولة بعريس رايح .. تاجر شنطة من اياهم ! .. »

فقال احمد الشعرانى :

ـ « لو انك كنت تحبها حقا ، كانت خافت منك .. ولكنت حضرتك ذهبت اليها فى دار أهلها و .. اختليت بها و .. عملت الواجب تمام معها .. و .. جعلتها تخرج من غرفتها خجلة من أهلها الذين كان يجب ان يشاهدوا آثار « الهجوم والقذائف و .. والملاحم » بوضوح على وجهها .. عنقها .. ذراعيها .. جسدها كله .

ضحك البنهاوى وقال :

ـ « حلم الجعان .. ومع ذلك فقد فعلت (الواجب) معها .. وجعلتها تعان عن انتشائها بالآهات و ال .. وظننت أنها عقلت .. لكنها كانت مجنونة بهدايا تاجر الشنطة .. قريبها ! .. »

قال محمود القناوى :

ـ « ما زلت عند رأى .. انك لم تحبها كما يجب ! .. »

اخرج السيد البنهاوى « نايه » من جيب الأفرول .. ومضى يعزف أحزانه وأحلامه ، و .. كف القناوى والشعرانى عن الحديث .. تمددا على فراشهما وظلا يحلقان فى سقف الخيمة و ..

***

فى خيمة الملازم مراد ، كان طاهر قد تخفف من أحزانه .. وعاد الى طبيعته الهادئة ، صارت كلماته واضحة وهو يقول :

ـ «اعرف أن حياتنا فيها عدد غير قليل من أمثال عبدالودود البقال .. المرابى اللص اننا نجده فى كثير من المجالات .. وان اختلفت صورته .. فهو قادر على التلون .. والتخفى بالأقنعة المناسبة ، وهذه العينة من البشر الضعفاء ، أو الحاقدين بمعنى أوضح .. لابد من كشفها .. وتنحيتها عن الطريق .. »

قال مراد :

ـ « ان مثل هذه الفئة القليلة ليست عبئا فادحا لأنها نبات طفيلى .. ولعلك معى اذا قلت أن الذين أرادوا نهش لحم البشر البســـطاء فى وادى النيل قد انتهى أمرهم ، وبقى الآباء أقوياء اشداء على الدوام .. وهكذا .. أتعرف لماذا ؟! .. لنفس الأسباب التى جمعتنى بك وبأهل اولاد كنانة .. فى هذا المكان .. لقد جئت بجنودى الى هنا للقيام بواجب قتالى ، ولعلك قرأت وسمعت عن الجهد البشرى الخرافى الذى يبذله رفاق لى ولك من الجنود والمدنيين فى بناء حائط الصواريخ الذى زعقت منه اسرائيل وملأت الدنيا بأنبائه .. ان هذا يملؤنى بالثقة فى أننا نقترب فعلا من ساعات حاسمة » .

قال طاهر :

ـ « ومع ذلك فما زال البعض يتشكك .. بل ان قلة تبجحت وكتبت كلمات مسمومة تحاول تثبيط الهمم .. أنظر مثلا ما كتبه فلان الفلانى .. مهاجما متعاميا عن معارك البطولة للجنود على خط النار .. انه يتسلل بفكره المشوش ليبث اليأس ويقلل من جهد أولاد كنانة الذين كانوا على الدوام يعانون هنا وهنـــاك ويحتملون كل المشاق دون أن يدرى مثل هذا « الفلان الفلانى » ـ الذى ترفه وترهل وصار كاذبا وحاقدا .. هذا نموذج للأشياء القرفة فى حياتنا .. »

قال مراد :

ـ « هناك فئة يطحنها عجزها الشخصى ، وتحاول أن تجد العزاء فى تشويه جهد الآخرين دائما .. ولو قدر لواحد منهم أن يرى أولاد كنانة يواجهون الخطر هذا طوال السنوات الماضية والقادمة ولو عرفوا كيف يســـتجمع أولاد كنانة شجاعة الأجداد

والأحفاد ويستولدونها من ضعفهم وخوفهم ، ليرفعوا هاماتهم هنا ، ويقولوا ببساطة ، انهم سيعيدون بناء ما دمرته الغارة .. لفهم الأغبياء أن هذه الاشارة .. اشارة الميلاد القادم من رحم العناء .. »

وصمت مراد لحظة ، أشعل لطاهر ولنفسه سيجارتين و .. أطل على الدنيا المليئة بحيوية الحياة من حوله .. وقال :

ـ « لعلك مع أهلك .. وهم أهلى .. قد لمستم اعجاب قيادتى فى المنطقة بمشروعكم .. لقد وصلت أخباركم الى كل الناس .. ولهذا تدفقت المؤن والطوب والأجهزة اللازمة لازالة آثار الدمار .. الا يكفيك هذا دليلا على صدق خطوتنا هنا !.. »

قال طاهر :

ـ « يخيل الى أحيانا ان ادعو الفئة المتخوفة .. الى رحلة استشفاء .. فلو انهم خرجوا من بيوت العناكب التى اصطنعوها لأنفسهم فى القاهرة وجاءوا الى هنا ، او الى أى قرية اخرى ، فسيرون الحقيقة الغائبة عن اذهانهم المكدورة باليــأس والدخان ورنين الكاس .. ولم لا نسمى أمراضهم باسمائها الحقيقية .. انهم فى غيبوبة ! .. »

ضحك مراد ، وقال وهو ينهض :

ـ « فكرة صائبة .. ويوم يعترف الضـــعفاء بضعفهم هم وحدهم ، دون أن يشوهوا الآخرين .. سيكسب أولاد كنـانة كثيرا ، وسنفك جميعا رهنية مصر من العدوان .. ورهنية فدان أبيك أيضا .. أليس كذلك ؟! .. »

***

تفجرت الحياة بالبهجة .. فى لحظة واحدة .. كان الشبان والبنات يرقصون ويغنون فى دائرة واسعة ، حول البنت سميرة

التى جلســـت فوق كومة من الطوب الجديد المرصوصة بعناية ومغطاة ببعض القش وجلباب أبيها مرسى العرضحالجى ، كانت البنت تذوب خجلا .. فتورد وجهها رغم شحوبه ، وازدان رأسها بوشاح أخضر كان منذ لحظات حول عنق عزيزة مختار .. و .. تقدم ماهر مختار ووضع على كتفى ســـميرة « بلوفره » الأحمر الجديد .. ووقف يرقص امامها بينما وقفت عطيات ، زوجة أبيها خلفها تطلق الزغاريد فى قذائف متلاحقة بالبهجة والفـــرح ، وبالقرب منها وقف الأسطى حسنى الترزى فى وضع ــ استعداد وفى يديه شومة طويلة ، حيث كان يلعب التحطيب مع « عطية الصعيدى » وما لبثت المباراة بينهما أن جذبت كل الأنظار .. .. كان عطية الصعيدى « عقرا » فى اللعب .. كما قال مرسى العرضحالجى وهو يتلقى تهنئة وســـيجارة من طاهر ومراد ، ويدخنها بمزاج رائق .. فقد ملأه الشعور بالرضاء لأنه وافق على خطبة ابنته سميرة للولد الأسطى حسنى .. مشترطا أن يعقد القران يوم انتهاء البناء فى البيوت الجديدة و .. أن يتم الزفاف يوم العبور الى سيناء ، وكان واثقا بخبرة عمره الطويل بأن هذا كله سيحدث ، كما أقسم بشرفه هو وشرف أجداده وأصدقائه من شهداء المعهد الدينى والفدائيين فى مدن وقرى خط القناة .. و .. زعق حسنى الترزى عندما « زنقه » عطية الصـــعيدى بالشومة وكسب منه الجولة .. زعق :

ــ « النجدة يابا مرسى ! .. »

وضحك الأهالى وزغردت النسوة .. ورقصت الفتيات ، ووقف الدكتور نعيم يتأمل المشهد وهو يقول :

ــ « اى سر فى جوفك يا مصر ! .. »

و .. التقط فتحى الصحفى عدة صور للعروسين وللأهالى .. وقال لطاهر :

ـ « كيف انقل للدنيا كلها هذا الشعور الساحر الذى يتمدد فى اعماقى وانا ارى ما اراه هنا .. كيف ؟! .. ان زميلى المشغول بالكتابة عن نجوم السينما والادب فى مصر محظوظ ببضـــاعته الرائجة .. اما انا واولاد كنانة .. فعلينا بالصبر حتى يستيقظ الفافاون ذات يوم ويصابون بالفزع والخجل من أنفسهم ! .. »

ربت طاهر على كتف فتحى وقال :

ـ « سـيأتى يوم لا يدهشنى فيه أن يتشـــدق الفافاون بالأكاذيب ويتباكون لعدم دعوتهم للمشاركة .. وكأن الوطن قد صار وليمة .. قل على لسانى اذا أمكن يا فتحى ان الحيوانات الكسولة الغبية لا تجذبها سوى رائحة الجثث ولحسن الحـظ لا توجد فى أولاد كنانة هذه الرائحة ! .. »

و .. جاءهم صوت الحاج نور الدين .. وقورا حانيا :

ـ « امرحوا وغنوا يا أولادى .. فكمية الخطر من حولنا ليست هينة و .. تحتاج الى تجديد الهمة ! .. »

وكاد يضيف : ان الأخطار المحدقة بهم .. مخفية .. لكنه امسك لســـانه وأخذ يصـفق بيديه مع الذين غمرتهم الفرحة و .. انطلقوا يرقصون وسط الدمار ..

الفصل الرابع عشر

سر الأسرار

فى الصباح الباكر ، أوقف مختار بيه سيارته الفارهة فى ساحة أولاد كنانة وهبط منها مسرعا ليفتح الباب لعلى الطواب وابنته وداد ، التى اعلنت نبأ وصولهم بزغرودة طويلة لمت الجميع حولها و .. عرفوا أن « على الطواب » يراهم جيدا رغم الضمادة فوق جبهته ووجهه و .. عانقوه بحب جارف ، وقالت أبلة ليلى ممازحة وداد :

ـ « لقد استجاب الله لدعائك يا بنت .. » ثم سألتها : «أين البحيرى الولهان ! .. »

وتورد وجه وداد ، واجتاحتها السعادة فظلت تزغرد دون توقف لفترة طويلة ! ..

كانت ، وكانوا ، يعرفون انهـــا وانهم يدعون الله أن يكون « على الطواب » هو بانى أول طوبة فى أول جدار فى أول بيت فى أولاد كنانة ، وكأنهما كانوا جميعا على اتفاق ، فقد اخذوا وقتا أطول مما يجب فى ازالة الدمار ، .. فأسرعوا الى اعداد المونة ، عجنوا الآسمنت بالرمل بالزلط والعرق وبانفاسهم ونبض قلوبهم وسط الحفل الصغير الذى أقامه الملازم مراد ودعا اليه المسئولين فى المنطقة ، وعددا من جنوده وفى مقدمتهم الرقيب مصطفى القطورى الذى كان عليه أن يهرول الى الموقع بعد أن يضعوا حجر

الأساس ليتابع عمل جنوده لحين عودة الملازم ، .. وباسم الله وأولاد كنانة حمل « على الطواب » أول طوبة وغرف الأسمنت المعجون فى اناء كبير حملته ابنته وداد و .. قبل الرجل قالب الطوب ، وبلله بدموعه ومسح به فوق جبهته المضمدة و .. وسط زغاريد مدوية بالفرح ، وتهليل الرجال والشبان والأطفال بكلمة « الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا .. » التى عانقت السـماء والشمس والهواء والشجر والتراب و .. وضع على الطـواب أول .. طوبة فى البناء وتقدم مرسى العرضحالجى ليقرأ « حجة » انشاء أولاد كنانة الجديدة والتى سجل فيها أشواقهم جميعا :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« انه باذن الله ومشيئته ، فى يوم الجمعة الموافق ٩ من رمضان سنة ١٣٩٣ هجرية ، و ٥ من اكتوبر ١٩٧٣ ميلادية ، قام أولاد كنانة بكل فئاتهم من الأهالى والجنود ، بوضع حجر الأساس لبناء أولاد كنانة الجديدة ، بعد أن دمرتها غارة العدو الذى هاجم الديار وقتل الأبرار فى أيام متصلة أحيانا ، متفرقة أحيانا ، منذ الخامس من يونية ١٩٦٧ ، وظل يغير علينا الى أن قدر الله لأولاد كنانة قوة وشجاعة من ابنائها واحفادها تحميها وتزود عنها فى قابل الأيام والسنين و .. وبالله التوفيق »

وحمل الجميع قوالب الطوب وأوانى المونة وانتشر البناءون فى كل مكان ، ففى ركن ترى الحاج نور الدين مع بناء ، وفى آخر ترى مرسى العرضحالجى مع بناء ، وفى ثالث ترى الدكتور نعيم مع بناء ، وفى رابع ترى طاهر وعزيزة مع بناء وفى خامس ترى مختار بيه وابنه ماهر مع بنـاء ، وفى كل الأركان كان عطية الصعيدى وحسنى الترزى والبنت سميرة وزوجة أبيها عطيـات والبنت وداد .. و .. وتوحدت دقات القلوب ونبضات العقول

وحبات العرق وامتزجت بالطوب والنخيل وكل ذرات الوجود و .. لهث فتحى الصحفى وهو يلتقط صورة لخلية النحل البشرى التى لم يقدر له أن يرى مثيلا لها من قبل الا يوم ذهب الى السد العالى ليغطى العمل فيه لعدة أيام منذ سنوات طويلة ..

وقال بصوت مسموع :

ـ « آه يا أولاد كنانة .. يا سر الأسرار ! .. »

و .. .. ..

اقترب مختار لاهثا ، وجسمه السمين يتصبب عرقا ، من طاهر ، وكانا يحملان على أذرعتهما « رصة » من الطوب الجديد ، تبادلا نظرة وابتسامة وقال :

ـ « على فكرة يا طاهر يابنى .. فى جيبى مرتبك عن الشهرين الأخيرين ! .. »

اندهش طاهر ، لكن الرجل غمزله بعينه وضحك وخبطه برصة الطوب التى يحملها على صدره ، وقال :

ـ « وهدية الليسانس هى .. عزيزة .. فقط شد حيلك يا ولد ! .. »

لكن طاهر فاجأه بسؤال :

ـ « من قلبك يا مختار بيه ؟! »

فاسرع الرجل يقول :

« لسنا فى وقت المسائل الشخصية .. حاول ان تصدقنى .. وسترى ان حياتى أنا شىء .. وواجبى وقت الأزمات شىء آخر .. »

وضحكا بمودة ، وتاها وسط الزحام الشـديد .. حول الجدران التى بدأت تعلو شبرا عن الأرض .

***

كان عبد العظيم البحيرى ، يزامل البنت وداد فى العمل .. كان يحمل رصة طوب على كتفه ، وكانت تحمله اناء المونة على رأسها ، اقترب من أبيها « على الطواب » وحطت هى المونة فى متناول يده ، ووقف هو يناوله قوالب الطوب ، طوبة بعد طوبة ، وعلى طرف لسانه كلمة يخجل .. يتردد .. فى قولها ، نظر الى الرجل ، كانت الضمادة فوق جبهته ، تذكره بأبيه البحيرى فى غيطان دمنهور .. لكزته البنت وداد بمودة ، ابتسم لهـا ، ابتسمت له ، شجعته نظراتها المفعمة بالحب .. قال :

ــ « بقولك ايه يا عم على ! .. »

قال الرجل وهو يضـبط الطـوبة فى مكانها ويطمئن على استقامة الجدار تحت يديه بنظرة بناء خبير :

ــ « هيه .. قول يا سيدى .. ؟! .. »

قال عبد العظيم البحيرى :

ــ « أصل .. كنت .. عايز .. و .. » « صمت مرتبكا »

رفع على الطواب هامته ، ونظر الى البحيرى بدهشة و .. الى ابنته وداد فى استفهام .. ولمح ارتباكهما وضحك منهما ، وفهم لهفة الولد على ابنته و .. سأله بأبوة ملحوظة :

ــ « ايه الحكاية يا ولد ؟! .. »

انتصب قامة البحيرى ، فبدا مشدودا فى زيه الكاكى ، طويلا صلبا كالسنديان ، وقال بسرعة :

ـ « اسمى عبد العظيم البحيرى .. جندى مقاتل وليس معى مؤهلات عالية وأحب الرسم جدا ونفسى توافق و .. تجوزنى بنتك الست وداد .. قلت ايه ؟! .. »

رشق « على الطواب » طوبة فى الجدار وثبتها ببعض المونة وضغط عليها بيده ، وادار ما سمعه من البحيرى فى دماغه عدة مرات ورفع رأسه . . اخذ نفســا عميقا ونظر الى وجه الولد البحيرى ، وسأله :

ـ « انت قلت ايه يابنى ؟! .. »

فأعاد البحيرى ما قاله ، بسرعة و .. وصمت مبتسما ، وملأ على الطواب عينيه من وجه ابنته وداد ، ورآها متــوردة .. مرتبكة ، فرحة ، و .. وقف فوق ـ الجدار الجديد الذى ارتفع بيديه شبرين عن الأرض ، وزعق بعلو صوته :

ـ « ياولاد كنانة .. ياولاد كنانة .. بنتى وداد اتخطبت للبحيرى ! .. »

و .. زغردت عزيزة مختار من قلبها وعانقت وداد .. وشد طاهر على يدى عبد العظيم البحيرى مهنئا و .. وتبادل الجميع التهانى و .. عملوا بنفس مفتوحة للحياة و .. وحرص كل منهم على اخفاء مخاوفه من المجهول فى أعماقه .. حتى لا يجد النكد طريقا جديدا اليهم ! ..

***

صاح محمودالقناوى بفرح عندما سلمهمندوب البريد خطابا من القاهرة ، و .. تسلم احمد الشعرانى رسالة باسمه وهــو يشعر بالقلق يربكه ، وفتح كل منهما خطابه و .. تبادلا نظرة وضحكة وعادا يطالعان الكلمات التى حلقت بهما فى آفاق بعيدة..

« حبيبي احمد الشعراني »

« كل من فى باب الشعرية والأحياء المجاورة .. عرف بحبنا .. فصديقاتى من كل بيت عرفوا اشواقى اليك ، وصاحباتى عرفن الحكاية أيضا ، وتفيدة الخاطبة نشرت أسرارنا فى كل دار ، قالت للأمهات والخطاب اننى مجنونة بحبك يا أحمد .. وأبى تندر بالحكاية فى قعدته مع شريكه على العشاء عندنا .. والليل والنجوم والهواء الطاير يعرفون أننى أحبك .. أحبك وأننى سأظل ما حييت انتظر عودتك من الجبهة لأزف اليك وآخذك فى أحضانى .. ولا أخجل من قول هذا لك يا نور عينى وحبة قلبى .. لقد رفض أبى أن أتم دراستى وقال ذاكرى للثانوية فى المنزل .. ولكننى أرى أنه قاسى دون سبب ، فهو قد وافق على خطبتنا .. وقبل منك « الشبكة » و .. لا أعرف بالضبط مشاريعه التى تهدد مستقبلى ، انه أبى ويحبنى لكنه هذه الأيام لا حديث له الا عن تجارته و .. سيفتح مع شريكه فروعا فى لبنان والكويت و .. هذه حكاية يطول شرحها .. لكن المهم .. كيف حالك .. هل تنام جيدا ، حافظ على نفسك من البرد و ..

« حبيبي محمود القنـاوى »

أقولها لك الآن بحريتى .. فبينى وبينك الآن بحار وأنهار وصحارى ووديان .. وسفر ليل ونهار .. لقد هاجرت يا محمود .. هربت .. اعذرنى .. لم أكن أحتمل الانتظار .. أعمل الآن فى مدرسة على شاطىء الخليج العربى .. أحس بوحدتى قاسية ..زميلاتى هنا لطيفات ، لكننى ازداد حنينا لك .. لأمى .. لأمك .. لاخوتى الصغار .. وحتما سأعود ذات يوم .. لأحكى لك كيف أحببتك .. وكيف هربت منك ولماذا هربت .. انها قصة طويلة مؤلمة .. لا تشغل بالك بها .. وصدقنى اذا قلت لك اننى

أشعر بالندم لأننى لم احضر اليك لأعمل مع أولاد كنانة كما اتفقنا ، لكنى كنت ضعيفة كنت سأنتحر اذا لم اهاجر .. و .. اتعرف .. اننى لا أنسى لقاءنا الأخير فى الكازينو العائم .. و .. « الترمس » على شط النيل .. واحلامك .. و .. كيف اعود اليك الآن .. كيف ؟ .. اننى اريدك وأخاف عليك منى .. اننى اتعذب .. وأحلم كثيرا بك .. لكن .. لا تشغل بالك بى .. اننى رغم كل شىء بخير .. وقد نلتقى ذات يوم .. وقد أجد شجاعتى لأحكى لك كل شىء و .. ربما استطعنا أن نصحح الأخطاء الفادحة أو نتجاوزها و ..

***

و .. اهتزت الأرض بدوى شـــديد ، واختلط الانفجار بالتراب بالدخان بالنـــار بالنخيل بالرمال بالزلط و .. صرخت النسوة من الفزع والهول و .. أدرك أولاد كنانة أن دانات مدافع العدو قد تجاوزت الثلاث كيلو مترات التى تفصلهم عن قنـــاة السويس و .. صنعت حفرا عميقة حول بلدتهم و .. أحس الجميع أن اللحظات القادمة مليئة باحتمالات صعبة .. وأن تكن غامضـــة ، مبهمة ، فى أذهانهم ، لكنهم بكل آلامهم وأحزانهم وأحلامهم وأشواقهم .. وضيقهم يحسونها ، يلمسونها ، يحملونها فى عقولهم وقلوبهم ، جنينا يتـــولد .. يتخـــلق .. ينمو ببطء شديد ، و .. لم يحتمل الحاج نور الدين صبرا فصاح فيهم ، وسط آثار الهدد الذى أصاب جدرانهم الجديد :

ــ « لا تهنوا .. لا تضعفوا .. ان الله لا يحب المستضعفين فى الأرض فهو جبار على القوم الكافرين ! .. »

واطل الدكتور نعيم على ابنائه وبناته من الطلبة ، وعلى أولاد كنانة العابسين الصامتين وقال :

ــ « هل نفرط فى احلامنا .. فى تعبنا كل هذه الشهور والسنين ، و .. و .. »

احس بعجز الكلمات ، فهبط من فوق كوم الزلط وحمل رصة من قوالب الطوب ، وتبعه طاهر حاملا اناء المونة ، وتبعتهمما عزيزة مختار ووداد والبنت سـمـيرة وحسنى الترزى وعطية الصعيدى ومرسى العرضحالجى وعلى الطواب و .. عادوا ببطء الى العمل فى صمت ، والليل يقترب منهم محملا بشتى الاحتمالات و .. التقط فتحى الصحفى عددا من الصـور ، وهو صامت ، لم يجد ما يقوله .. كان بداخله شعور قوى بأنه لم يعد هناك وقت للكلام مهما كان صادقا .. كان بداخله احساس لا يقاوم بقرب وقوع شىء خطير .. مثير .. شىء يهز الدنيا من أولها لآخرها .. لكن ما هو هذا الشىء .. قال فى سره :

ــ « ان الانتظار لحظة أخرى يعرض كل شىء للخطر ! .. »

الفصل الأخير

الزلزال

*** المكان .. الهدف : ((موقع اسرائيلى يضم ١٧ ملجــأ مدفعية ثقيلة .. و ٦ مواقع مدفع هاون .. و ٢٦ مدفع ماكينة، و ٩ مدفع جوى و ٢٠ دشمة رشاش و ٣ نقط ملاحظة .. و ٩ ملاجىء دبابات .. و ٨ مرابض دبابات احتياطى ، و ٣ مخازن للذخيرة .. و ٣ مخازن للمواد الكيماوية ، وموقع صواريخ أرض – أرض ، وتكديس ادارى ضخم من الذخيرة والاعاشة تكفى جنود العدو للقتال شهرا كاملا ، بالاضافة الى جهاز رادار وعنــاصر للخدمات الأخرى .. كان الملازم مراد ورجاله يعرفون كل هــذه التفاصيل و .. وكانوا فى انتظار لحظة اطلاق ((الشرارة)) و ..**

كان (منير) يتحدث مع محفوظ الفيومى عن احلامه فى العودة ذات يوم لاستكمال دراسته ليحصل على الدكتوراه فى علم ادارة الأعمال ، وكان سيد البنهاوى يحكى للطبيب سمير مرقص عن اشواقه لحياة الأسرة والاســتقرار .. اذا وافقت (منى) أن تعود اليه من أجل ابنهما (وليد) .. وكان فضيلة المهندس هناء عبد السلام يحدث زميله « عوضين الحنك » عن بطولات خالد بن الوليد وفدائية جنده ، وداعبهما أحمد الشعرانى بأنهما سيكونان معا سدا منيعا فى وجه رشــاشات العدو لحظة رفع العلم و .. اعترض عوضين ضاحكا وقال :

– لا ترجع فى كلامك يا شعرانى .. ستكون انت والبنهاوى

وفضيلة المهندس سدا منيعا امامى .. لأننى سأحمل العلم .. سأرفعه واقف كبرج الجزيرة ..

واقترب منهم « حبشي » فرحب به البنهاوى كعادته :

ـ « مرحب بالسيد حبشى بك مندوب أولاد الذوات .. قل لنا ماذا ستفعل عندما تلتقى بنساء خط بارليف .. ؟! »

وضحك حبشى وقال :

ـ « أنا لا أحب الرمرمة يا ولد ! .. »

وداعبه محفوظ الفيومى :

ـ « لم تقل لنا بعد ما هى مشـــاريعك لاستثمار أموالك الطائلة ؟! .. »

فضحك السيد الصامت « بهاء » وقال :

ـ « ألم نتفق على أنه سيدخل بها الى حقل الفن لينتج أعمالا نظيفة ؟! .. »

وعلق عوضين بمرح :

ـ « اذا حدث هذا فلن أمانع فى أن تكون ابنتى « رشا » نجمة فى أفلامكم القادمة يا أولاد ! .. »

و .. لاحظوا ان زميلهم سالم المنصورى يقف صامتا بجوار عبد العظيم البحيرى .. فأحاطوا بهما وضحكوا .. وعلق الفيومى:

ـ « السيد سالم المنصورى وتابعه البحيرى .. الله .. اسم مسرحية تجنن يا ولد ! .. »

وقال سالم وعيونه تحفظ كل ملامحهم :

– اتعرفون يا اولاد .. ان حياتنا هنا لها طعم عجيب .. لا ينسى ! ..

و .. غاب عنهم لحظات بذهنه، شرد هناك .. الى «أمنية» وصار حديثه لها .. عنهم :

– « كيف يا حبيبتى أعبر لك عن اشواقنا واحلامنا وآلامنا .. اننا جسد واحد .. رأس واحد .. قلب واحد .. هل أنجح يوما فى نقل هذا الاحساس البسـيط الصـعب الى الناس فى مسرحيتى عنهم .. هل استطيع ذلك حقا ؟! .. »

.. كان عبد العظيم البحـيرى يرسم «بروتريهات» سريعة لوجوه زملائه ، كان يفعل ذلك بسرعة ، كان بداخله شـــعور عارم باقتراب لحظـة يفترقون فيهـا ، لا يعرف كيف داهمـه هـذا الاحساس ، لكنه كان يتنفسه مع الهواء ، كان يعيه بوجدانه ، كان يسمعه مع هسيس الأرض وحفيف ورق أشجار الفاكهة فى الجناين ورائحة الأرض والطوب الجديد والمونة ولون عينى وداد .. زعق فيهم ضاحكا :

– « ابتسموا ياولاد .. صورى دى حتدخلكم أعظم متاحف الفن والتاريخ فى الدنيا وانتم لاتدرون .. »

.. ..

.. ..

(كان البحيرى وهو يرسمهم ، يحلم بليلة دخلته على البنت وداد ، وكان سالم المنصورى يفكر فى الخيط الصلب الساخن الذى يربط اجزاء المسرحية ، وكان الرقيب مصطفى يرقبهم من بعيد ، وهو يحلم لابنه عاطف باختراع عجيب يهز الدنيا ، وكان الملازم مراد يطل عليهم من حافة الخندق ، ويعيـــد التفكير فى

مشروعه للزواج من ابلة ليلى بعد أن تنتهى الحرب و .. كان الموقع صامتا الآن ، كأنما ينصت معهم الى حديث سماوى يحكى أشياء كثيرة يعجز الانسان عن وضع مدلولات لفظية لها ، لكنهم جميعا كانوا يفهمون هذه اللغة.. فطالما سمعوها وأجابوا عليها فى صمت، منذ جاءوا الى هنا و .. يوم كانوا فى مواقع أخرى .. فدائما كان للأرض تحت أقدامهم حديث عذب والغيطان من حولهم همس ساحر يدخل من آذانهم ، وأنوفهم، وجلدهم،، ويمتزج بدمائهم. بكل عيونهم يمتزج بخـــلايا ادمغتهم وأنسجة قلوبهم ويجعلهم يفهمون أشياء تفوق مقدرة البشر ، فيقولون — فى صمت شديد — فى نوبات الحراسة وفى طوابير التدريب :

— « لبيك يا مصر .. لبيك .. يا أم .. يا أب .. يا حب .. يا عمر .. يا زوجة .. يا أولاد .. يا أحلام . يا أصحاب ، يا كل الصبر والشوق والمصير .. لبيك .. »

لم يكن أحدهم يفتح فمه ليقول شيئا ، ليبين عن عشقه أو يبوح بحبه كان القلب والعقل والعيون والنبض والدم والروح تتوحد .. تصير نبضة واحدة مدوية ، عاتية ، تعانق الشمس والقمر والنجوم والريح والنهار والظلام وتنساب فى فعل واحد عنيف صارم فى أصابعهم المشدودة على الزناد وهم يطلون الآن برؤوسهم .. بخوذاتهم ، من الخنادق ، ويتسلقون الســواتر الترابية العالية .. العالية .. المحيطة بأولاد كنانة ، ويهبطون فى سرعة البرق وعنفه فى اتجاه شـــط القناة ويسحبون قوارب « الزودياك » يحملونها الى مياه القناة تحت ستارة كثيفة .. سميكة .. من اللهب والدخان وفوران الماء ، موجات مع موجات خلف موجات أمام موجات و .. زلزلت الأرض زلزالها وأطلقت مدافعهم الرشاشة والقاذفة أثقالها و .. اهتزت القوارب ودارت حول الغام الماء وعبرت فوق دوامات رهيبة صنعتها دانات معادية

وتقدموا ... تقدموا .. كانوا يعرفون طريقهم .. يحفظونه ، رسموه فى اذهانهم بعرق ودم . . وشـهداء واحتمـال ومرار وأشواق سنين العمر الطويل وحملوه صبرا مرهقا خلف الحواجز وفى الخنادق وطوابير الليل وتدريبات الدم على نماذج مجسمة لتحصينات خط بارليف الرهيبة ، وازداد اهتزاز القارب وزمجر « عوضين الحنك » فى غضب :

ـ « يا قاتل يا مقتول يا مصر ! .. »

ودفع المجداف بكل قوته ، وعلى صدره علم الوطن ينبض بنبضه وغضبه .. وجاءهم صوت ، من عمق قناة السويس جاء ، من آلاف الغيطان خلفهم جاء ، من أولاد كنانة جاء ، من شواشى النخيل ، من جذور السمسم ، من الفول السودانى .. من بقايا الجدران القديمة .. من بدايات البيوت الجديدة جاء .. من وداد وعزيزة وطاهر وعطية الصعيدى والحـاج نور الدين ومرسى العرضحالجى والبنت سميرة وحسنى الترزى وعلى الطواب وأبله ليلى والدكتور نعيم ومختار بيه ، من المدارس والجوامع والكنائس والمصانع وملايين البيوت الحزينة فى طول مصر وعرضـها .. جاءهم الصوت .. ومن كل طوبة وحبة زلط ورمل فى الجدران الجديدة .. جاءهم الصوت .. من السماء والأرض جاء .. كان صوتا مدويا حادا .. حاسـما .. عميقـا ، فى آذانهم يقول :

ـ « انها معركة المصير .. معركة كل ما عشنا نحلم به ، وننتظره فتقدموا يا جنـد الله باسم الوطن .. ولا تبخلوا على الأرض بدمائكم ! .. »

واهتز القارب هزة عنيفة واشتعلت فوقهم طائرة للعـدو وتاهت أشلاؤها وسط الجحيم و .. اقتربوا من بداية الشط

الشرقى ، فقفزوا من القوارب .. صاح فيهم فضيلة المهندس هناء عبد السلام :

ـ « احذروا الغام الماء والأرض » وأسرع مع رفاقه يفتحون الثغرات ويطهرون الطريق وسط طلقات مدافع العدو الرشاشة وجرح البنهاوى فصرخ فى غضب هائل :

ـ « لا .. لا يا أولاد الـ .. لن اسقط قبل ان انالكم !..»

أسرع اليه سمير مرقص ..

ولف ذراعه برباط ضاغط ، لكنه نزع ذراعه ، جرى متسلقا الساتر الترابى المرتفع وعلى كتفه مدفعه وجرحه وعنـاده و .. حاصرته طلقات العدو من كل اتجاه فأسرع اليه الفيومى ، والقناوى ومراد ومصطفى القطورى وصنعوا حوله ستارة من الطلقات و .. رأى الجميع السيد البنهاوى يصل الى قمـة السـاتر الترابى المرتفع ، واخذ يعد لهم « سلالم الحبال المتينة » ليصعدوا .. وسمعوه يزعق بصوت أمتزج بالتراب والدم والفرح :

ـ « الله أكبر .. الله أكبر ! .. »

ومد أحدهم ذراعه وساعد العملاق « عوضين الحنك » على الوصول الى قمة الساتر الترابى و .. استدار .. الصق ظهره بظهر عوضين واخذ يطلق النار فى اتجاه دشمة العدو ورآه بعينيه .. يرفرف .. يرفرف كمن عاش عطشانا للهواء من الف مليون سنة و .. ورددت الأرض والسماء هتافهم :

ـ « الله أكبر ... الله أكبر ! .. »

رشق العدو عدة رصاصات وشظايا فى جسم عوضين ، فى صدر السيد البنهاوى فى ذراع الفيومى ، فى ساق المنصورى

فى خوذة منير ، فى قدم حبشى ، فى طريق السيد الصامت بهاء، وفى فخذ الطبيب سمير مرقص ، لكنه أحدا منهم لم يتـوقف ، ظلوا يتقدمون .. دون أن يشعروا بجراحهم كانت أجسـامهم وارواحهم قد صارت كمية هائلة من الغضب والاصرار و ... احاطوا بدشمة الموقع الحصين .. كان اسمه الموقع رقم (١٩) شمال القنطرة شرق . وتوالت الموجات من الجنود .. وحمـل بعضهم جسد عوضين العمـلاق المخضب بالدم ، وظـل بعضهم يحرسون العلم الذى ظل مرتفعا مرفوعا فى اتجاه الشرق و .. ازداد العدو شراسة ، واحالت دانات العـابرين كل شـبر الى جحيم مخيف و .. صرخ قائد الموقع الاسرائيلى : « المصريون فوقنا الآن .. نحاول منعهم ! .. »

***

كانت شمس الظهيرة تميل الآن الى الغروب ، والتقط أولاد كنانة انفاسهم ، وفهموا أن صدورهم وعقولهم وقلوبهم كانت حبلى بما حدث ويحدث منذ ساعات أمامهم وحولهم ، فاستعادوا ثقتهم وملكوا القدرة على الحركة وامتدت أيديهم الى معاولهم وطعامهم أسرعوا الى عربات الجيش والدبابات المنطلقة أمامهم من كل مكان وبطول الأرض وعرضها .. فى اتجاه قناة السويس وهللوا باسم الله ومنحوا الجنود كل حبهم واشواقهم ، وطعامهم وبطاطينهم وقلل الماء .. وعلب السجائر .. وزغردت وداد .. وعزيزة مختار .. والبنت سميرة و .. صاح احدهم :

ـ « الحرب يا أولاد كنانة .. الحرب ! .. »

***

« اشارة من العدو : « الأنباء مروعة .. الحصون لا تمنعهم

انهم يهاجمون موجات وراء موجات .. ارسلوا لنا امدادات مدرعة بسرعة »

***

جاءت عربات وحملت الطلبة والطالبات وغيرهم من الرجال والنساء والأطفال الى بعيد .. لكن عطية الصعيدى رفض ، والحاج نور الدين رفض ومرسى العرضحالجى رفض ، وعلى الطواب رفض .. وقالوا أن الجدران الجديدة ارتفعت نصف متر عن الأرض .. وسنظل بجوارها ، و .. كانت الأوامر مشددة بضرورة نقل الجميع الى الخطوط الخلفية حرصا على حياتهم ، وطال النقاش ودمعت عيون الرجال .. وتمسكوا بالجدران الجديدة .. ورفضوا .. حاول طاهر اقناعهم قال :

— « سنعود بعد أيام .. ونستكمل البناء الجديد معا .. »

« لكن أباه عطية الصعيدى زعق فيه :

— « اسكت يا ولد .. اذهب انت معهم .. وسننتظركم هنا .. لا تخافوا علينا .. سنكون بخير ! .. »

وقال الحاج نور الدين وهو ينظر الى ابنته ليلى الذاهبة مع الآخرين :

— « سيكون البيت الجديد واسعا .. عامرا بالخير .. وسيملؤه أولاد وبنات ليلى بالمرح والضجيج و .. »

وقال حسنى الترزى ، وهو يتشبث بالجدار الجديد الذى يصل الى ركبتيه فقط :

— « حبنى دكانة الخياطة .. واشترى مكنة جديدة .. واتجوز البنت سميرة .. ونخلف عيال .. واحس بقى انى ليه عيلة .. ومنيش يتيم ! .. »

قال مرسى العرضحالجى :

ـ ((ستنجب عطيـات ولدا .. سيأتى الولد وسأسـميه محمد وسيم .. سيكون مثل أصدقائى فى المعهد الدينى وفى حرب القتـال ..))

وقال على الطواب :

ـ ((وسيعود الولد عبد العظيم البحيرى وسينجب من البنت وداد ولدا .. فارسا .. يحكى للناس عن جده البناء العجوز وعن أولاد كنانة الجديدة ..))

***

« اشارة أخرى من العدو الى قيادته : المصريون يشـعلون اللهب برصاصهم فى الدشم .. لقد خدعتمونى .. يا من أنتم بعيدون عن هذا الجحيم .. المصريون يطاردون دباباتنا .. اننا ننتهى .. انقذونا ! .. المصريون يسحقوننا ! »

***

انشقت الأرض عن فتحى الصحفى .. كان يلهث ، فوق « الفزبا » الصغيرة المرهقة ، كان يسـابق الريح ، سـأل بعض الجنـود :

ـ « هل قامت الحرب حقا يا رجال ؟! .. »

فضحكوا .. وضحك معهم وقال فى ارتباك شديد :

ـ ((تصوروا .. أعيش ست سنوات بين هذه المواقع .. وتفوتنى لحظة البدء ! .. سوء حظ .. لكننى سأكون أول من

يبلغ النبأ العظيم الى الصحف من هنا .. سانقله الى العـــالم كله ! ..

وقفز فوق « الفزبا » .. وانطلق يسـابق الريح تاحثا عن تليفون لكنه عندما وصل الى أول محل به تليفون كان الراديو هناك يذيع البيان رقم واحد .. وسط دهشة الناس وتهليلهم وفرحهم العظيم .. ضرب فتحى رأسه فى أقرب حائط و .. وقف يملى رسالته الأولى ..

قال لاهثا :

ـ « ان ما حدث كان أكبر .. كان أضخم .. كان أخطـر من أن يتنبأ به بشر .. ان الصورة مليئة بآلاف وملايين التفاصيل الو يا وكالة الأنباء اتسمعنى ؟ .. لا .. انه صوت القنابل والمدافع والطائرات .. صوت جهنم فتحت أبوابها على الآخر .. اكتب .. لا يهم أن اسمعك .. المهم أن تسمعنى انت .. سجل كل ماأقوله ان الزحف كان مذهلا .. كان عجيبا .. هل رأيت الدنيا كلهـا بملايين الناس والأشجار والبيوت والأطفال ـ والأحلام والآلام ان كل هذا كان يزحف من آلاف الخنادق هنا فى اتجاه القنـاة كان يعبر الى هناك .. الى سيناء وسط الانفجارات واللهب و .. سأذهب فورا الى هناك .. لأنقل لكم التفاصيل الجديدة ..

***

فى الموقع القريب من أولاد كنانة كان ضـباط الاتصـــال مشغولين تماما بالعمل .. ودخل عليهم فتحى الصحفى لاهثا ، وقال :

ـ « كيف يمنعوننى من الذهاب الى هناك .. معى تصاريح المرور اللازمة .. لابد أن انقل صورة لما يحدث .. »

لكن ضابطا هناك اخذه من يده ، أجلسه الى منضدة ، ورجاه أن يهدأ قليلا ، ثم قال له مبتسما :

ـ « حياتك غالية يا أخى .. كيف تفرط فيها ! .. »

قال فتحى مندهشا :

ـ « والآلاف الذين يعبرون الآن الى سيناء .. حياتهم أغلى .. لكنه الواجب .. وواجبى يحتم أن ... »

فقال له الضابط :

ـ « وجودك هناك الآن سيكون عبئا عليهم .. فأنت فى حاجة الى من يحميك .. الخطر هناك فى كل ملليمتر من الأرض والهواء .. »

وصمت فتحى ، أراد أن يقول للضابط أنه عاش حياته متجولا فى ربوع الوادى بحثا عن خبر واحد يصنع به خبطة العمر ، لتصبح حياته محتملة بعد ذلك ومقبولة ومريحة للزوجة والأولاد و .. أنه الآن فى لحظة العمر ، يشهد .. من بعيد .. أخطر ما يمكن أن يحلم به ، ومع ذلك فهو لا يعرف كيف يصل الى .. خط بارليف مع الموجات الأولى .. قال بالحاح :

ـ « أريد أن أعبر معهم .. لأرى .. لأعرف .. »

قال له الضابط :

ـ « كل ما يمكن أن أقوله لك الآن أننا بدأنا الاقتحام على طول القناة من الشمال للجنوب .. وأن أعلام الوطن مرفوعة فوق كل الحصون و .. » .

سأله فتحى بالحاح الصحفى الذى عاش ثلاثين سنة من عمره يلهث وراء التفاصيل :

ـ « كيف ؟ .. كيف ؟ .. أريد أن أعيش التفاصيل بنفسى .. أن أعيش .. أو اموت لا يهم .. طالما ساجعل الدنيا ترى ما يحدث الآن .. و .. »

لكن الضابط اعطاه سيجارة وأخذ يدخن هو سيجارته وقال بعد وقت طويل :

ـ « لقد قرأت كل ما كتبته فى الصحف عن اولاد كنانة .. انها تجربة مثيرة حقا .. ولها دلالتها المفيدة فى فهم ما حدث وما يحدث وما سيحدث .. »

.. نظر اليـه فتحى الصـحفى .. وحاول أن يفهم كل تفاصيل المشهد الدامى الذى يزلزل المكان والزمان من حوله ..

« تمت بحمد الله »

« حسن محسب »

« نوفمبر ــ ديسمبر ١٩٧٣ »

● **كتب المؤلف :**

١ ـ لحظة حب ـ قصص قصيرة ١٩٥٨ ..
٢ ـ الكوخ ـ قصص قصيرة ١٩٦٤ .. وزارة الثقافة
٣ ـ التفتيش ـ روايتان قصيرتان ـ ١٩٦٧ .. وزارة الثقافة
٤ ـ قضية الفلاح فى القصة ـ دراسة ـ ١٩٧١ .. وزارة الثقافة
٥ ـ العطش ـ رواية ـ ١٩٧٢ « كتاب الاذاعة والتليفزيون »
٦ ـ وراء الشمس ـ رواية ـ تحت الطبع .. « روايات الهلال »
٧ ـ ديار العشق والمحبة ـ قصص ـ تحت الطبع « مطبوعات الجديد »
٨ ـ المصير ـ رواية ـ ١٩٧٤ .. «كتاب الاذاعة والتليفزيون»
٩ ـ حلم الليل والنهار ـ رواية ـ تحت الطبع
١٠ ـ لحظة طيش ـ رواية ـ تحت الطبع .
١١ ـ المثقفون .. ومشكلة الثقافة المصرية ـ دراسة ـ تحت الطبع .
١٢ ـ الأدباء .. والحرب ـ دراسة ـ تحت الطبع .

صدر من كتاب الاذاعة والتليفزيون :

* لغتنا الجميلة	فاروق شوشة
* ممنوع من التداول	محمود عوض
* قصة الضمير المصرى الحديث	صلاح عبد الصبور
* عصر التليفزيون	عبد المنعم حسن
* مذكرات محمد كريم (جزآن)	محمود على
* اسلاميات	سامح كريم
* ليالى مسرحية	عبد القادر حميده
* لقاء بين جيلين	محمد عبد الحليم عبد الله
* الأحاديث البهية فى شرح الحياة الفنية	فؤاد معوض (فرفور)
* أهل المغنى	مجدى نجيب
* العطش	حسن محسب
* نافذة على الحياة	عبد الرحمن سليمان
* ترويض المراهق	فريد حسن
* خفايا النكسة	عاطف الغمرى
* البنات والبحر	عبد المنعم صبحى
* معركة العبور	صلاح قبضايا
* أحمد عرابى راهب الليل وفارس النهار	حازم عرابى
* السينما والشباب	عبد المنعم حسن
* طه حسين فى معاركه الفكرية والأدبية	سامح كريم
* قدر الآخرين	جيلان حمزة
* الفكر الفكر الذى انتصر	سعيد عثمان
* حرب البترول	محسن محمد
* بحر من الحب	محمد جلال
* مسافر على الموج	عبد الفتاح رزق
* المصير	حسن محسب

الكتاب القادم : الصحافة وقضايا الفكر الحر فى مصر

بقلم : فاروق ابو زيد

مطابع الهيئة المصرية العـامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٤٨٥٧

